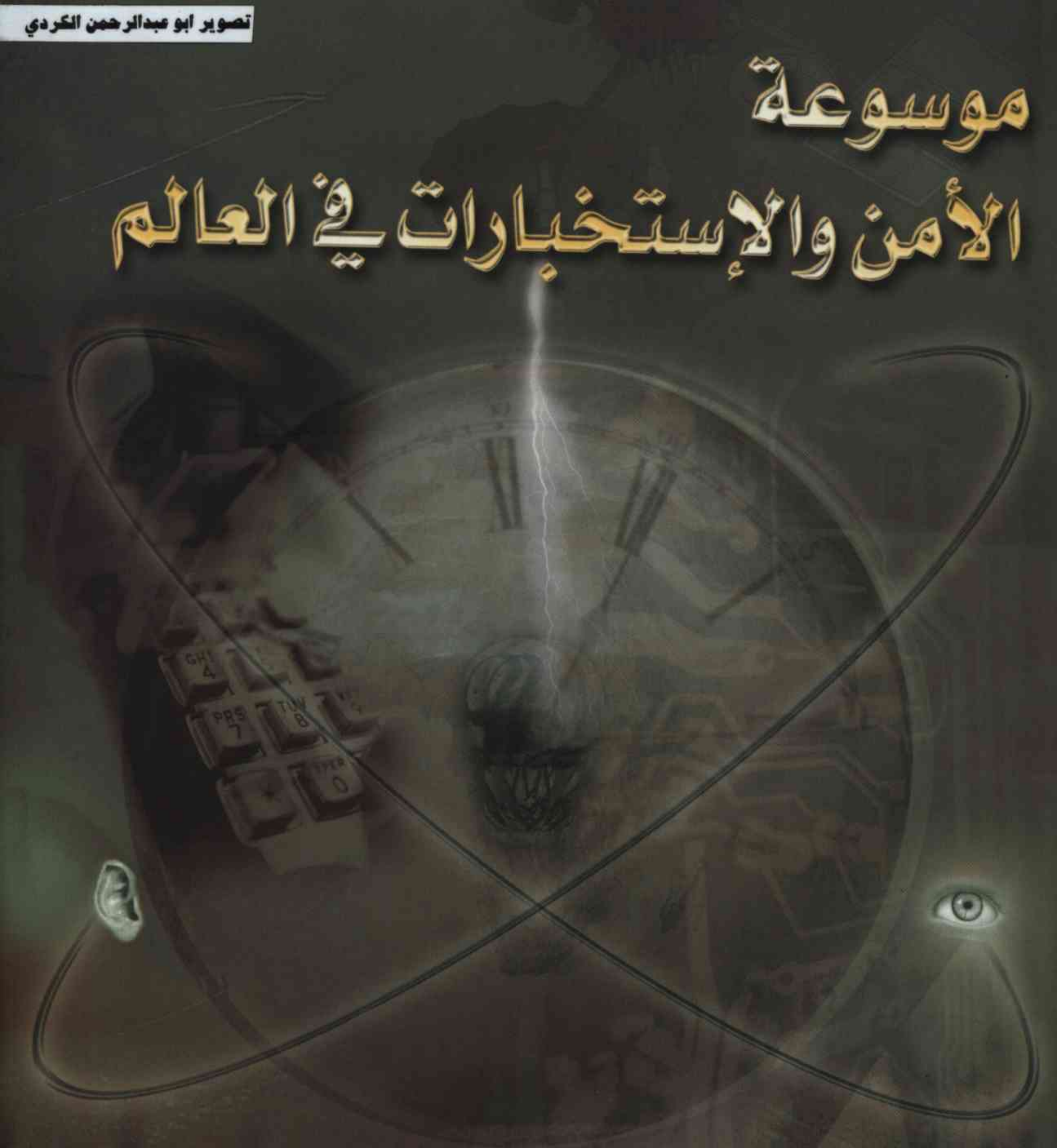
موسوعة الأمن والإستخبارات في العالم



تأليف د. صالح زهر الدين

ملف الإستخبارات السوفياتية



موسوعة

الأمن والإستخبارات في العالم

د.صالح زهر الدين

ملف الإستخبارات السوفياتية

الجزء الثالث

المركز الثقافي اللبناني

المركز الثقافي اللبناني

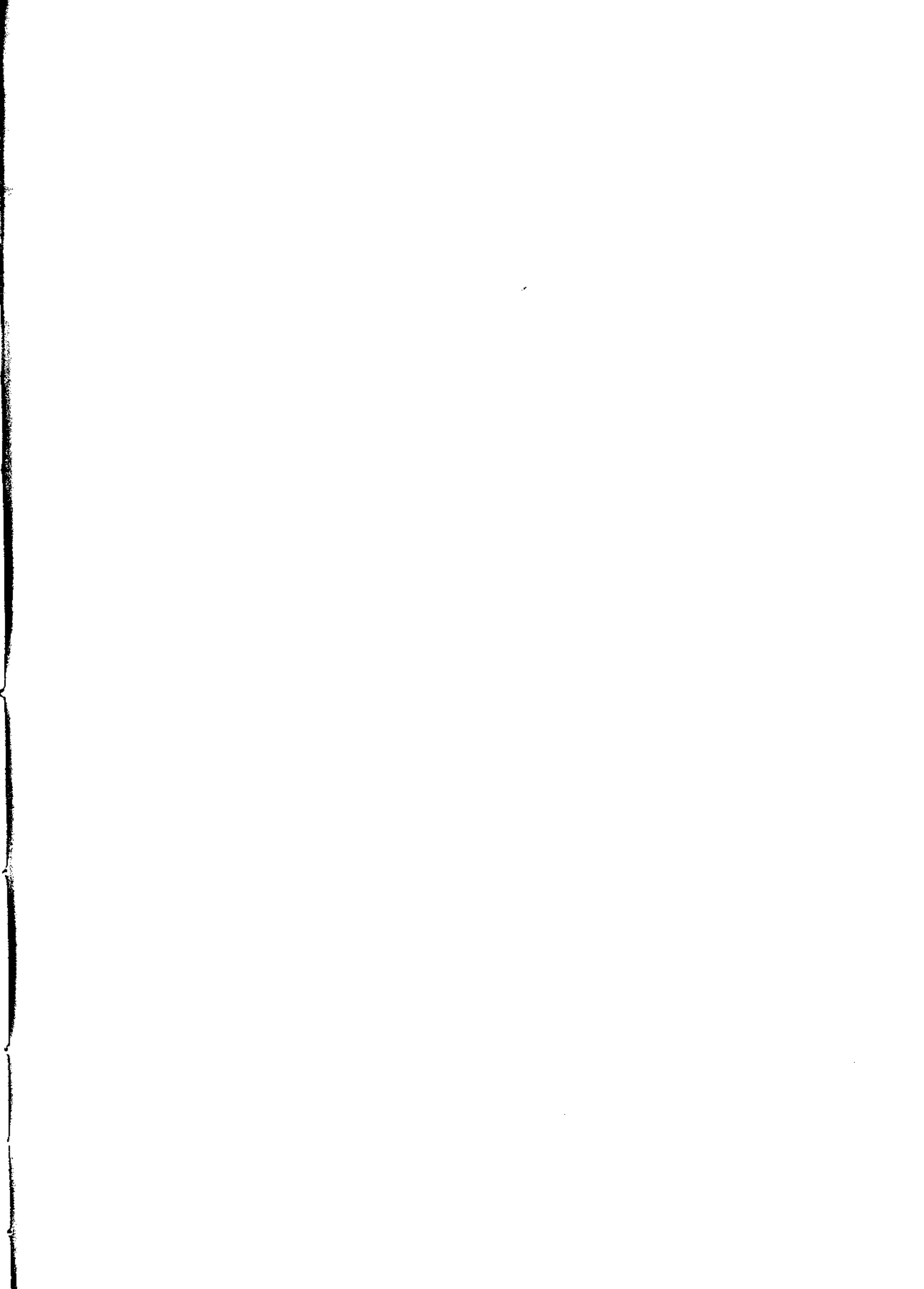
للطباعة والنشر والتأليف والترجمة والتوزيع

بيروت ـ هاتف: ٠٥/٤٦١١٧٧٧ ـ ٠٥/٤٦١٨٨٨ ـ ٠٢/٧٥٣٦٦٣

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

ملف الاستخبارات
السوفياتية



المخابرات السوفياتية
وأسرار نشوئها وتطورها وتفوقها

- ١ -

عندما كانت مؤسسة «المخابرات» من أهم المؤسسات والدعائم التي تقوم عليها الأنظمة كان لابد من ايلائها ما تستحقه من اهتمام على المستوى الذي يكفل للنظام ديمومته وبقاؤه واستمراريته. وعلى هذا الأساس، ومنذ ظهور الاتحاد السوفياتي الى الوجود، اعتبر زعماؤه أن الجاسوسية بأية صفة وشكل، هي من أهم الأسلحة التي يعتمد عليها، وبالتالي فقد فعلوا كل شيء من أجل انشاء منظمة من شأنها أن تتفوق على أية دائرة استخبارات في العالم. وقد أصبح هذا الهم الاستخباراتي على رأس لائحة الهموم الكبرى التي كانت تمثل هاجساً عظيماً لزعماء الكرملين. ومن خلال ذلك أصبح بمقدور الاتحاد السوفياتي أن يدعي عن حق وحقيق بأنه يملك أضخم وأكفأ شبكة جاسوسية في العالم، حيث لم تبق بقعة صغيرة لا يصل اليها نور الشمس، إلا وللسوفيات وجود فيها. وقد تمكنوا من التغلغل في أدمغة العالم الحر وتلاعبوا بأعصابه وشرايينه حتى أصابه ما يشبه الهستيريا.

فما هو سر المخابرات السوفياتية؟ وكيف وصلت وتربعت على العرش الاستخباري في العالم؟.

تقوم في ميدان «كالجييف» دار ذات ثلاث طبقات وباب صغير من المرمر تجاور مبنى مجلس الشيوخ القديم، وقد بنيت في عام ١٧٧٥ وبها حديقة غناء مزدانة بالأزهار الجميلة، وتطل نوافذها على مناظر طبيعية فاتنة، وهذه الدار تؤلف مركز أكبر هيئة جاسوسية في العالم، وإن كان مظهرها لا

يدل على هذا. وهي دار هادئة محفوفة بالغموض كالذين يعملون فيها، وبعيدة عن حركة المرور وعلى نحو نصف ميل من وزارة الداخلية.

وقد اختار هذه الدار «فياشيسلاف رود ولفو فيتش منزينسكي» الذي كان شاعر منظمة المخابرات السوفياتية المعروفة بـ «التشيكا» لتكون مكتبه الخاص بعد أن قرر الانتقال من لوبينكا. وكان مكتبه هذا أشبه بصالون حافل بالتماثيل واللوحات الفنية. وكان يكتب بالقلم ذاته ترجمة الأشعار الفارسية ويوقع به أوامر القتل لموظفيه.

في هذا المبنى بالذات كانت تعد الخطط ومنه ترسل الجواسيس وتحاك المؤامرات، وترسم السياسات.

وفي عام ١٩٢٧، وفي شهر مايو تحديداً قام ٨٣ من زعماء الهيئات المعارضة من التروتسكيين اليمينيين باتهام ستالين بخيانة تعاليم لينين، وأخذت المعارضة تستغل «وصية لينين» التي لم تنشر وتتلاعب بها. وقد أدرك ستالين أنه لا يمكنه أن يواجه هذا التحدي وينقذ مركزه إلا بقرارات جريئة يتخذها إزاء المعارضة داخل الاتحاد السوفياتي وفي ميدان السياسة الخارجية.

وقد عمد ستالين في المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الذي انعقد في شهر كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام الى الكشف عن محتويات (الوصية) وهي عبارة عن خطابات بعث بها لينين وهو على فراش المرض في عام ١٩٢٣ وقال فيها: «ان ستالين ليس الشخص اللائق لزعامة الحزب ولا الذي يصح تعيينه سكرتيراً عاماً للحزب». ولكنه انتقد مطامع تروتسكي وانحرافه عن المسلك البلشفي. وهكذا نجحت مقامرة ستالين وتم القضاء على المعارضة بفضل تأييد الوفود لفكرة ابعاد تروتسكي من الحزب. ولم تكد تمضي ثلاثة أسابيع حتى أرغم المنافس الخطير الوحيد لستالين على الذهاب الى المنفى. وتمت السيطرة على الأزمة الداخلية في ذلك الوقت، وقرر ستالين أن الوقت حان ليتولى قيادة «التشيكا» ويحيلها الى أداة لتثبيت

قوته الشخصية. وأصبح «للتشيكا» رئيس جديد واسم جديد، فقد مات «دزرشينسكي» فجأة في عام ١٩٢٦ وخلفه وكيله «فياشيسلاف مرينسكي» وهو كسلفه ينحدر من أسرة بولندية من أصحاب الأملاك. ويبدو في مظهره مترهلاً واهن القوى. وكان يستقبل زائريه وهو مستلق على أريكة مغطاة ببطانة من الحرير الصيني. وكان لينين يطلق عليه «مريض العصبي المتدهور». ولكنه كان يعلم أن هذا المظهر يخفي الكفاءات والمؤهلات التي يحتاج اليها المدير الناجح للبوليس السري، وهي تلك التي كان يتمتع بها مؤسس المخابرات السوفياتية «دزرجينسكي».

ولم يكن منزينسكي كبير الاهتمام بالمخابرات السرية الأجنبية، فترك تفاصيل أعمالها لموظفيه. ولكن ستالين رأى أن الخدمة السرية في الخارج تحتاج الى توجيه أكثر نشاطاً، فأحدث التغييرات اللازمة بما جبل عليه من مهارة ومكر. فعقد منزينسكي بإيعازه اجتماعاً لرؤساء أقسام الخدمة السرية، وألقى تريليس رئيس القسم الخارجي كلمة في المجتمعين اعترف فيها بحوادث الفشل التي أصيبوا بها، وقدم مشروعاً لإعادة تنظيم شبكاته وانشائها في عواصم العالم، وعرض أسماء «رفاق متألقين» قدموا خدمات جليلة في مهمات صغيرة واقترح ترقيتهم الى مناصب رئيسية في إدارة الشبكات التي لم ينفضح أمرها الى ذلك الوقت والتي يمكن توسيع نطاقها.

وقدم منزينسكي بعد ذلك شاباً كان الى ذلك الوقت جالساً يصغي في صمت ولا يقول شيئاً، ولم يكن عضواً في القسم الأجنبي ولم يكن بعض الحاضرين يعرفون حتى اسمه. وقيل لهم أنه الرئيس المساعد لقسم شاشتني اوديل وهو قسم تابع للتشيكا ومختص بالإشراف على الرعايا السوفيات والأمن الداخلي.

وليس من شك أن بعض رؤساء الاقسام المثقفين ذي الأجور العالية نظروا بسخط واشمئزاز الى ذلك الشاب الذي كان يرتدي زي العمال الكالح اللون وآيات الغباء تظهر على سحنته. ولكن برغم نظرتهم له وفكرتهم الأولى

عنه لم يسعهم إلا الإصغاء باهتمام عندما قدمه منزينسكي بقوله: «الرفيق غنبريك غريغور يفيتش ياغودا الذي يحبه ايفان فاسيليفيتش (وهو الاسم الذي يطلقه عادة أعضاء التشيكا على ستالين) ويثق به كل الثقة». وربما ظهر ياغودا بمظهر الغباء ولكنه سرعان ما أظهر قوته عندما قال: «ان ستالين غاضب وقد استقر عزمه على وجوب وضع الأمور في نصابها فقد حدثت مآس بسبب أخطاء الأفراد لا الهيئات ولم يعد ثمة مكان للذين يرتكبون الخطأ». ثم أخذ القائمة التي أعدها تريليس بالتعيينات الجديدة وشطب عدة أسماء منها. وأضاف يقول: «ان هناك بعض أشخاص سيعينون في مناصب هامة في الخارج» وكان لافرنتي بيريا من بين هؤلاء.

وينحدر ياغودا من فلاحي لاتفيا، ولم يعرف عنه أنه دخل مدارس. ولم يكن يعرف الخطابة. ولهذا كان حتى في أوج قوته يخجل من هذا النقص. وقد قال تروتسكي: «الظاهر أن هناك سراً يربط ستالين بياغودا الى الأبد».

وأصبح ياغودا نائباً لمنزينسكي، وأدخلت بعض التغييرات في وسيلة المخابرات. وقام الكومنترن خلال السبعة عشر عاماً التي تولى خلالها دزرشينسكي ومنزينسكي إدارته بدور هام في تنظيم الجاسوسية الأجنبية. وكان الكومنترن يعتمد الى حد كبير على أهل البلاد التي يعمل فيها، ولكن ياغودا أصدر أمره بأن يكون جميع المديرين المقيمين من الروس، وألا يعمل الجواسيس في مواطنهم على الإطلاق. فالألماني لا يجب أن يستخدم في المانيا ولا البريطاني في بريطانيا. والغرض من هذا كما قال ياغودا هو التنصل عند الانفضاح. اذ يمكن عندئذ أن يصدر نفي رسمي بأن روسيا لا تعرف هذا الشخص. كما يمكن أن يوعز بأن الألماني الذي يعتقل في فرنسا كان يتجسس للجيش الألماني، وأن يقال عن الفرنسي الذي يضبط في ايطاليا أنه يعمل لحساب المكتب الثاني الفرنسي وغير ذلك. وبهذه الوسيلة الماكرة يمكن استخدام الافتضاح في بذر بذور الشقاق بين الأعداء المشتركين.

ولم يكن هذا الإجراء من الناحية العملية يدعو الى الإرتياح. ولكنه كان يتمشى مع الخطة التي ترمي الى نقل الإشراف التام على الجاسوسة الى «التشيكا»، وإن استمر الكومنترن يقوم بدور كبير في التجسس تحت إدارة التشيكا. وقد ظل هذا الحال حتى الى ما بعد تولي ياغودا الإشراف على التشيكا عقب وفاة منزينسكي في ملابسات غامضة خلال عام ١٩٣٤ (وقد اتهم ياغودا في عام ١٩٣٦ بأنه قتل منزينسكي وغوركي بالسم واعترف بذلك). وعاد الكومنترن الى سلطته بعد الحرب العالمية الثانية عندما عاود الظهور باسم الكومنفورم برئاسة «جدانوف» الذي قام هو ببعض أعمال التجسس على التجارب الذرية. ولم يكن «بيريا BERIA» راضياً عن هذا النشاط. ولم تتمكن التشيكا من استعادة سلطانها وإشرافها بلا منازع إلا بعد وفاة «جدانوف» فجأة.

وكان الفضل لياغودا في انتقاء أربعه من خيرة جواسيس روسيا، وذلك خلال الفترة التي كان يعمل فيها نائباً لمنزينسكي. وهؤلاء الجواسيس هم «جورجي دميتروف ولافرنتي بيريا، وغيرهارد ايسلر، وريتشارد سورج» كما اكتشف ثلاثة من منفذي أحكام القتل وهم «جورج منيك. وأندريه سيمون وأرنست ويلويبر». وربما كانت أعظم خدمة أداها للمخابرات السرية السوفياتية خلال هذه الفترة هي طريقة تمويل أعمال التجسس بالتزوير. فقد كان مشروع الخمس سنوات الأولى الذي نفذ في عام ١٩٢٩ يحتاج الى مشتريات كبيرة من الخارج يدفع ثمنها بالعملات الأجنبية أو بالذهب. وكانت التشيكا أيضاً مفتقرة الى المال لتدفع أجور المديرين والمقيمين والعملاء في الخارج. ولهذا أعد مشروع للحصول على المال اللازم بالتزييف. ويغلب على الظن أن يكون «ميرونوف» من هيئة القسم الاقتصادي هو الذي وضعه، وتولى ياغودا تقديمه الى ستالين الذي وافق عليه وأخرج قسم التزييف في التشيكا أوراق نقد من فئة مائة دولار أجيد تزييفها الى حد يكاد يصل الى الكمال. وعهد بيريا بتنظيم توزيعها، وقد استخدم في ذلك شيوعياً في برلين يدعى «فرانز فيشر» افتتح مكتباً للإستيراد والتصدير في شارع «نيو ونتر فيلد» وأطلق على نفسه اسم

«الهر سيمون» وادعى أنه من النمسا ويشتغل بالمضاربات في البورصة. ولم يجد صعوبة في شراء بنك «ساس ومارتيني» الذي تأسس في عام ١٨٤٦ وكان يتمتع بسمعة محترمة. وبعد أن تزود «فرانز» بالتعليمات والأوامر من موسكو عاد الى برلين وتسلم أوراق النقد الزائفة وتولى «بنك ساس ومارتيني» إيداعها في «دويتش بنك».

وكان صرافو بنك «الفيدرال ريزرف» في نيويورك أول من اكتشف التزييف وذلك في كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٢٩. ولكن مضت شهور قبل أن تؤدي التحريات الى معرفة مصدر هذه الأوراق وهو بنك «ساس ومارتيني». وعندئذ اختفى فيشر وموظفوه وكانوا جميعاً من أعضاء هيئة الجاسوسية في برلين. وقد صادفت هذه العملية نجاحاً كبيراً حيث ظلت الأوراق الزائفة متداولة خلال عام ١٩٣٠ في مختلف ربوع العالم. وكان بنك «الفيدرال ريزرف» يكتشفها عندما تصل اليه. وقد قال «كريفيتزكي» المدير المقيم في فيينا أن نحو عشرة ملايين دولار من الأوراق الزائفة استبدلت بعملة صحيحة ولم يقبض إلا على عدد ضئيل من العملاء في هذه المؤامرة.

وأوقفت هذه العملية في العام ذاته. ولكن بعض العملاء الذين اشتركوا فيها احتفظوا بكميات كبيرة من الأوراق الزائفة لاستخدامها لمنفعتهم الشخصية وأخذوا بعد ذلك يدخلون في عمليات مع المهربين الاميركيين على أساس تقاسم الأرباح مناصفة. وقد كشفت محاكمة الدكتور «فانتين غريغوري بورتان» أحد أطباء نيويورك في عام ١٩٣٤ بتهمة ترويج دولارات ورقية زائفة عن قصة مثيرة أثبتت أن رجال العصابات كانوا يعملون بالاشتراك مع رجال المخابرات السرية السوفياتية. وقد سجن الدكتور بورتان ولكنه لم يعترف بالمصدر الذي أخذ منه أوراق النقد الزائفة من فئة المائة دولار التي أعطاها لرجال العصابات في مقابل التنازل لهم عن ٣٠ في المائة من قيمتها.

ولكن كريفيتزكي لم يلبث بعد بضع سنوات أن أبلغ احدى لجان الكونغرس أن بورتان كان معروفاً للتشيكا بأسماء مستعارة منها «فرانك بيلى»

و«ادوارد كير» و«بورتسين» و«بيـل».

والظاهر أن الـرأس المفكر الحقيقي وراء هـذه العملية كـان «غيرهـارد ايسلر» الذي كان يعمل وقتئذ في بـرلين وقد أرسـل أوراق النقد الى الـولايات المتحدة مع «نقولا روزنبرغ» من أهل البوسنة. وكان يعمل في انتاج الأفلام في هوليوود. ولكن قسم المباحث الجنائيـة أخذ يهتم بـه عندمـا أنشأ «الشـركـة الاميركية الرومانية للأفـلام» في بوخـارست لتكون مـركزاً لعمله في البلقـان. واعتقل بورتان ولاذ روزنبرغ بالفرار من نيـويورك وذهب الى ايسلر الـذي كان عنـدئذ في بـراغ وحمله على إقنـاع التشيكـا بتخصيص مبلغ كبيـر من المـال للدفاع عن بورتان. ولكن هذا الـدفاع لم ينقـذ بورتـان من حكم بالسجن أمـداً طويلاً.

مـات منزينسكي فـي ١٠/ ٥/ ١٩٣٤ وتولـى ياغـودا الإشراف الأعلى وكانت إعادة تنظيم «الغيبيو» الذي ظفر اسمه بالشهرة التي تمتعت بها التشيكـا في عام ١٩٢٢ قد أعدت بالتفصيـل قبل وفـاة منزينسكي ونفـذت بلا ابـطاء. ولم تكن جميع التغييرات الجوهرية من تفكير ياغودا وحده، وإنما كان مصدرها ستـالين وساعـده الأيمن «جورجي مكسيميليـان نوفيتش-مـالنكوف» السكـرتير الخاص لستالين الـذي أصبح فيمـا بعد أقـرب مستشاريـه. وقد ألغيت الإدارة السياسية للدولة وانضمت أقسامهـا وأكثر المكـاتب الباقيـة من الكومنتـرن الى «النكفد» أي قوميسيرية الشعب للشؤون الداخلية التي لم تكن في الواقع غيـر «تشيكا» أكفأ تتبع أساليب أحدث. وجرد الكومنترن من جميـع النفوذ الإداري في الخدمة السرية. فقد انتقل هذا النفوذ الى المكتب المـركزي لأمن الـدولة الذي يضم إدارات للمخابـرات السريـة وانقسم أيضاً الى عـدة أقسام وانشئت أيضاً ستة مكاتب مركـزية أخـرى وفرت لـوزارة الداخليـة الإشراف التـام على جميع المخابرات السرية وشؤون الأمن. وظفر المكتب المركزي لأمن الـدولة بالإشراف التام على كل شيء حتى وإن كان بعيد الصلة بالجاسوسية ومناهضة المخابرات السرية. أما الوسيلة القوية لإعادة التنظيم التي كان لها الفضـل في

ذلك الطراز من قوات الأمن الموجودة الى يومنا هذا فقد تأيدت بسلسلة من المراسيم أصدرتها فيما بين ١٠ يوليو و٥ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٣٤ اللجنة التنفيذية المركزية ووقعها الرئيس كالينين ولا تزال هذه المراسيم معمولا بها وإن أدخلت بعض التغييرات على الخدمة السرية خلال عهد بيريا.

واستمر حكم ياغودا عامين الى أن اعتقل في شهر يوليو سنة ١٩٣٦ عندما أمر ستالين بتعيين «نيكولاي يزهوف» سكرتيراً للجنة المركزية ليتولى إجراء حركة تطهير بين البلاشفة ورجال التشيكا القدامى.

المخابرات السوفياتية وأسرار نشوئها وتطورها وتفوقها

- ٢ -

بعد أن تغلغلت الاستخبارات الروسية في جسد العالم الحر، وشكل هذا التغلغل خطراً هدد جميع أعضائه، احتارت دوله العظمى خاصة في كيفية توجيه ضربة مؤلمة لنظام «الجيش الأحمر» الذي يهدم القيم البشرية ويفسد الانسان على حد قولهم. وهذا ما دفع «ونستون تشرشل» الى اثارة هذه النقطة بالذات في مجلس العموم البريطاني خلال عام ١٩٤٦ عندما قال: «ان كثيراً من الدول تسعى للحصول على معلومات عن شؤون الدول الأخرى، ولكن الفرق بين النظام السوفياتي وغيره من النظم هو أن الناس في البلدان الشيوعية يدينون بمبدأ التضحية بوطن الانسان في سبيل وصول الشيوعية الى مثلها الأسمى». وعندما كانت الجاسوسية بطبيعتها تقتضي المكر والدهاء والفن والخيانة وعمل أشياء في الخفاء لا يمكن اتيانها علناً، إلا أن المخابرات السوفياتية تفوقت على سائر مخابرات الأرض في كل هذه القضايا مجتمعة. وكان لابد إزاء ذلك من تجنيد أمهر جواسيس الأعداء وأكفأهم للنفاذ الى داخل هذه المؤسسة السوفياتية التي تحاط بهالة من الغموض والأسرار ليس من السهل مطلقاً سبر غورها والوصول الى خفاياها المليئة بالألغاز. وهذا ما حدا بالصحفي البريطاني «كوكريدج» ـ الذي اشتهر بكتاباته في الشؤون السياسية، وكان من عملاء المخابرات السرية ـ الى الكتابة عن تاريخ أغرب نظام جاسوسية عرف في التاريخ، ويعتبرونه حجة في شؤون روسيا السوفياتية خاصة بصدد الصراعات التي كانت تعيشها بلاد الروس من الناحية السياسية وانعكاساتها على التشيكا.

ومن هنا يقول «كوكريدج» بأن حكم «غنبريك باغودا» استمر عامين الى أن انتقل في شهر تموز يوليو ١٩٣٦، عندما أمر ستالين بتعيين «نيكولاي يزهوف» سكرتيراً للجنة المركزية ليتولى إجراء حركة تطهير بين البلاشفة ورجال «التشيكا» القدامى. وتم في عهد يزهوف تعيين ثلاثمائة شخص من الرؤساء والموظفين والعملاء في جميع الإدارات والأقسام المهمة. وتم تطهير الشبكات الأجنبية من كل شيوعي قد يعد عدواً ولو من بعيد لحكم ستالين وإشرافه التام. واختفى في الواقع آخر البلاشفة القدامى وشهد العامان اللذان قضاهما «يزهوف» في الحكم «حماماً من الدم» هلك فيه عدد كبير من خيرة أصحاب العقول في التشيكا. ولكن التركيب البيروقراطي لهذه الهيئة وضخامة حجمها مكّناها من الصمود أمام هذه المحنة كما صمدت لحركات التطهير الأخرى. وكان الأعضاء الجدد الذين حلوا محل من تناولتهم (التصفية) أو الذين أرسلوا الى معسكرات العمل يختلفون الى حد كبير عن القدامى. فهم صغار السن ولم يشتركوا في عهد ما قبل الثورة ولا يعرفون عنه ولا عن الأفكار التي كانت سائدة فيه، شيئاً. ولكنهم دربوا تدريباً كبيراً على أعمال المخابرات والتجسس.

ومن بين العوامل التي مكنت الجاسوسية الأجنبية السوفياتية من الاحتفاظ بكفاياتها برغم الهزات الداخلية، عهد ما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي قامت في سنة ١٩٢٩ واستمرت حتى عام ١٩٣٢. وكذلك قيام هتلر النازي والحرب الأهلية الاسبانية فقد أدت متاعب الأزمة الاقتصادية وحالات الفشل الظاهر للنظام الرأسمالي، أدت بكثير من المتعلمين في أوروبا والولايات المتحدة الى الإنقياد للعملاء السوفيات الأكفاء الماكرين. وقد استغل قيام هتلر والخوف من الفاشية الى أقصى حدود الاستغلال، فأخذ الملايين يتطلعون الى الاتحاد السوفياتي غير مدركين أن فيه حكماً مطلقاً. كما في المانيا لا تتردد المخابرات السرية في التعاون مع قواده اذا وجدت ذلك مجزياً ـ على حد قول «كوكريدج» ـ.

وقامت الرابطة بين العسكريين الرجعيين الالمان بل وبعض زعماء النازي، وهيئة أركان الحرب السوفياتية والتشيكا ـ كما يقول كوكريدج بإشارة من أسياده البريطانيين ـ وقد نصح قواد الجيش الأحمر وبعض زعماء الكرملين في عام ١٩٢٠ وما بعده بالتحالف مع المانيا لأنهم كانوا يعتقدون أن في امكان روسيا والمانيا، الأمتين الناهضتين أن تقضيا على الرأسماليين والاستعماريين الغربيين. والواضح أنه كانت تقوم وراء هذه السياسة فكرة مفادها أنه اذا تم النصر على الغرب أصبح في الإمكان «تكييف» الشعب الالماني بحيث يقبل الشيوعية، وبهذا يتيسر إقامة حكم سوفياتي في وسط أوروبا.

وكان الجيش الالماني الذي تولى الجنرال «فون سيكت» تدعيمه وتنظيمه الى حد يدعو الى الاعجاب منذ عام ١٩٢١ مخالفاً بذلك نصوص معاهدة فرساي، يتزود بالأسلحة من الجيش الأحمر. وظل كذلك بضع سنوات حتى بعد قيام النازيين وتسلمهم السلطة في المانيا. ولكن «كريستنسكي» السفير السوفياتي في برلين وخليفته «فينتشوك» الذي كان مندوباً تجارياً سوفياتياً في لندن ومنظم شبكة أركوس للتجسس، ظلا يقومان بالتآمر مع الملكيين الألمان وهم «اليونكر» البروسيون والطغمة العسكرية المحيطة بالجنرال «فون شليخر» والجنرال «فون هاوستين». وكان مندوب المخابرات السرية السوفياتية في هذه التحالفات الغربية «هانز كيبتيرغ» الذي كان زعيماً لثورة بحارة همبورغ وأصبح فيما بعد عضواً في الرايخستاغ وتولى منذ عام ١٩٢٨ منصب كبير جواسيس التشيكا في «الشؤون السياسية العسكرية الالمانية» وعمد الجنرال «بوتنا» الملحق العسكري الروسي في برلين الى توثيق صلته بالجنرال «فون بريدو» الخبير بشؤون روسيا في هيئة الأركان العامة الألمانية. ومن بين زعماء النازي الآخرين الذين اشتركوا في المؤامرة الكابتن «أرنست روهم» و«غريغور ستراسر» كما ظهرت فيما بعد أدلة أن «هرمان غورنغ» كان مشتركاً أيضاً في المؤامرة.

وعندما أصبح «فون شليخر» مستشاراً لألمانيا في ٢ كانون الأول/ديسمبر

١٩٣٢ ، تبين أن جهود الخدمة السرية السوفياتية قد أوتيت ثماراً. ولكن لم يكد ينقضي شهران حتى شق هتلر طريقه وأصبح مستشاراً للدولة ضد رغبة الجيش وأوساط الجناح الأيمن فانهارت خطة التعاون السوفياتي الالماني. على أن ستالين عاود هذه السياسة بعد ستة أعوام عندما تم توقيع ميثاق ريبنتروب ـ مولوتوف في موسكو الذي نص ليس فقط على التعهد بعدم الاعتداء، وإنما على توثيق أواصر الصداقة أيضاً بين المانيا والاتحاد السوفياتي.

هذا وتشير المخابرات البريطانية على لسان عميلها السري «كوكريدج» الى أنه «مع أن هذه الخطة كانت تمثل سياسة ستالين الشخصية إلا أن الأشخاص الذين عهد اليهم بهذه المهمة الشاقة الخاصة بتحقيق التعاون بين السوفيات والمانيا في عام ١٩٣٠ وما بعدها عوملوا بعد ذلك كخونة».

وفي عام ١٩٣٧ ، اتهم الجنرال «بوتنا» ـ الملحق العسكري السوفياتي في برلين ـ هو والمارشال «توخاشفسكي» وستة قواد آخرين برتبة جنرال بالخيانة العظمى والتعاون مع النازي، ونفذ فيهم حكم الإعدام.

واستدعى «كيبتيرغ» الى موسكو وقتله رجال التشيكا بالرصاص. ولاقى بعض معاونيه المصير ذاته. وكان هتلر أيضاً قد تخلص من «أصدقاء التعاون السوفياتي الألماني» وهلك «أرنست روهم» و«غريغور ستراسر» و«الجنرال فون شلئيخر» في «ليلة السكاكين الطويلة» ونجح غورنغ في تبرئة نفسه ولكن هتلر لم يثق به بعد ذلك.

وفي عام ١٩٣٨ اختفى «يزهوف». والمعتقد أنه توفي بعد ذلك في احدى المستشفيات وخلفه «لافرنتي بافلوفيتش بيريا BERIA » وكان في الواقع خير من تولى شؤون الخدمة السرية السوفياتية خلال السبعة والثلاثين عاماً التي زاولت خلالها نشاطها.

ولد بيريا في «تفليس» سنة ١٨٩٨ وكان كستالين من أهل جورجيا. وكان والده موظفاً صغيراً انحدر من أسرة من المزارعين. وكان أمل بيريا أن

يصبح مهندساً معمارياً ولكن الأسرة كانت مع هذا على شيء من البحبوحة فدخل كلية المعلمين ثم انضم الى الجيش القيصري في الحرب العالمية الأولى ولكنه لم يرسل الى الجبهة بسبب ضعف بصره. ويقول بيريا عن نفسه أنه كان ثورياً منذ أول شبابه وحرض جنود وحدته على التمرد فاعتقل وحوكم أمام مجلس عسكري حكم عليه بالإعدام ففر الى الجبل وانضم الى الثوار من أهل جورجيا وأصبح زعيماً لهم في عام ١٩١٧ كما أصبح في ثورة اكتوبر ـ (تشرين الأول) ١٩١٧ زعيماً صغيرا لعمال الزيت في باكو. وقد لاذ بالفرار بعد هزيمة الجيش الأحمر أمام الجيش الأبيض في عام ١٩١٩ تاركاً القوقاز تحت رحمة العناصر المناهضة للشيوعية. وقد استخدم في هربه جواز سفر مزيفاً باسم «فانو داهيشفيلي»، ووصل الى «أومسك» في سيبيريا بعد رحلة محفوفة بالأخطار وسط البراري والقفار، وقابل في سيبيريا أسرى الحرب المجريين الذين حررهم البلاشفة وعقد أواصر الصداقة مع كرواتي يدعى «جوزيف بروز» الذي أصبح بعد عشرين عاماً شخصية مرموقة في العالم حيث يعرف باسم الماريشال تيتو. وعاد الى القوقاز لينضم الى الحملة التي انتهت بهزيمة الجيش الأبيض وعمل في المخابرات السرية، وتخصص في تهريب جنود ادعوا أنهم فارون من الجيش الأحمر لينضموا الى الجيش الأبيض بقيادة الجنرال «دنيكين». وقد وصلت أنباؤه الى موسكو فأوصى به ستالين لدى دزرشينسكي، وأصبح بيريا في الثالثة والعشرين من العمر عميلاً موثوقاً به، والتحق بالمفوضية السوفياتية في براغ، وكانت مهمته الإبلاغ عن ضباط الجيش القيصري المنفيين. وقاده عمله هذا الى الإندماج في الحياة الراقية وأصبح معروفاً في الأندية الليلية في مدن وسط أوروبا. وهو يميل الى تعلم اللغات وكان يتكلم الفرنسية والالمانية والتشيكية بطلاقة لا تقل عن طلاقته في الروسية وقد استدعي لقيادة حملة تأديبية ضد المزارعين في موطنه جورجيا، وقد أتم عمله هذا بنجاح وأجيب الى طلبه العودة الى العمل في أوروبا فقضى منذ عام ١٩٢٨ نحو تسعة أعوام في الخارج، واتخذ لنفسه عدة أسماء مستعارة تمكن بها من دخول أوساط المهاجرين من المنشفيك

والتروتسكيين. ونظم الرقابة التي فرضت على تروتسكي، ومتابعته في الأماكن التي فر اليها من تركيا الى المانيا ومن المانيا الى الدانمارك الى أن التجأ أخيراً الى المكسيك.

وقد تولى بيريا الإشراف على التشيكا في عام ١٩٣٨ في وقت ساء فيه الإدراك بأن الحرب في أوروبا على وشك النشوب وأنها واقعة لا محالة. فتحول الاهتمام الى المخابرات السرية الاستراتيجية وبخاصة الكشف عن الأسرار العسكرية العلمية. وكانت الخدمة السرية السوفياتية في ذلك الوقت تتألف كلها تقريباً من أشخاص تدربوا في ظل حكم ستالين وبينهم كثيرون من أهل جورجيا. وقد عمد بيريا، وهو رحالة ورجل مثقف الى تشجيع فكرة ضم عملاء ذي ثقافة عالية لكي يتمكنوا من التعامل مع العلماء ورجال الفكر والثقافة الأجانب ويكونوا في مستواهم العلمي والثقافي.

ويكاد يكون من الأمور المؤكدة أنه لم يكن هو المخطىء في فشل المخابرات السرية السوفياتية ولا في تقدير المقاومة الفنلندية حق قدرها، ثم في مدى الهجوم الألماني الذي كان وشيك الوقوع. عندئذ فإن الوقائع توحي بأن المخابرات السرية السوفياتية زودت الكرملين بالحقائق. ولكن هذه الحقائق أسيء تفسيرها في الدوائر العليا لأسباب سياسية. وقد اضطرت المخابرات السرية السوفياتية خلال الحرب بطبيعة الحال الى استخدام أكبر قدر من مواردها في الأهداف الحربية وتنظيم حركات سرية للتخريب في الأماكن التي يحتلها العدو. ولكن العمل الجليل الذي أدته هذه المخابرات بزعامة بيريا يظهر في قضايا عديدة هامة واستراتيجية كتلك الواضحة في قضية «شبكة سورج» في اليابان و«الأوركسترا الحمراء» في المانيا والمناطق التي كان يحتلها النازيون في أوروبا.

وأخذت مطامع بيريا تنمو داخل الاتحاد السوفياتي وكان يعلم أن التشيكا هي السلم المؤدي الى السلطة العليا. وعندما انتهت الحرب وقل الضغط على المسائل العسكرية البحتة، انهمك في تثبيت مركزه بحيث يصبح

مع توقع وفاة ستالين بلا منافس.

وبوفاة «جدا نوف» الذي كان يعد خليفة ستالين أصبح بيريا بدون منازع لأنه انفرد بالإشراف على أداة قوية كالتشيكا. وكان مالينكوف من أقرب أصدقاء ستالين، ولكنه مع هذا كان صغير السن، ولا يتمتع بنفوذ على القادة الآخرين في الكرملين يمكنه أن يخلف ستالين. وكان هو المنافس الآخر الوحيد الذي يخشاه بيريا من صفوف الجيش الأحمر، حيث كان قواد هذا الجيش يكرهون التشيكا ويكرهونه هو ويستنكرون التدخل المستمر الذي يقوم به أتباعه الذين أطلق عليهم «ضباط الترفيه» والعمال السياسيون والذين ألحقوا بكل وحدة عسكرية. ولم ينسوا كما لم يغتفروا أبداً إعدام الماريشال «توخاشنسكي» في عام ١٩٣٧، وكذلك الضباط السبعة الآخرين برتبة الجنرال. وربما كان بيريا يأمل في أن يتفاوض مع الماريشال «بولغانين» وآخرين كـ «جوكوف» و«كونيف» و«فاسيفيسكي» وغيرهم من زعماء هيئة الأركان العامة. وكان يقدر كفاءة مالينكوف ومواهبه ولكنه استهان بمكره ولذا جعله يعقد الصفقة مع الجيش قبل أن يفكر بيريا فيها بزمن طويل. وهكذا ختم مصير بيريا عندما اجتمع حملة نعش ستالين في الكرملين. ولم يكن من المصادفات أن يرأس محاكمة بيريا الماريشال «كونيف» ولا أن يقدم الجيش القضاة العسكريين الذين أرسلوا زعيم التشيكا الى ساحة الإعدام.

والواقع أن سلسلة الإعدامات هذه لم تفقد التشيكا خيرة رجالها حيث تولى رئاسة مكتبها كولونيل يدعى «سيرجي كروغلوف» بمعاونة نائبه «سيروف».

انضم «كروغلوف» الى الميليشيا كشرطي وأخذ يرقى السلم ببطء تحت رئاسة منزينسكي وياغودا ويزهوف الى أن أصبح كولونيلاً وقائداً لحرس الكرملين.

وفي عام ١٩٤٥ رافق مولوتوف الى أول اجتماع للجمعية العامة للأمم المتحدة في سان فرنسيسكو وقد لاحظ رجال المباحث الجنائية الأميركيين أنه يحمل مسدسين ضخمين تحت سترته. وقد تولى إدارة تدابير الأمن في

مؤتمري «يالطا» وطهران ومن ثم في «بوتسدام» خلال عام ١٩٤٥ . ومما يذكر أن الساسة البريطانيين والأميركيين طلبوا من مولوتوف أن يرشح بعض موظفيه لمنحهم أوسمة بريطانية وأميركية مجاملة لمولوتوف فأجاب بابتسامة ساخرة قائلاً: «أعطوا وساماً لكروغلوف رئيس الأمن عندنا وسوف يقابل ذلك بالتقدير» وأقيمت حفلة كبرى قلد فيها اللورد ايسماي باسم الملك جورج السادس كروغلوف الوسام الأعظم للإمبراطورية البريطانية، وقلده الرئيس ترومان وساماً أميركياً أعظم وهو وسام الاستحقاق.

واستمرت التشيكا في فرز خبرائها الى ميدان المخابرات كالجنرال «بيتور بوغدانوف» واللفتنانت «جنرال سيمونوفيتش بانيوشكين» وكذلك «يوري اندروبوف» الذي توصل الى رئاسة الدولة في الاتحاد السوفياتي ومن بعده «حيدرعلييف». كما تستمر من ناحية أخرى في تحقيق نجاحاتها العظيمة في التجسس على دول حلف شمالي الأطلسي والحصول على أدق أسرارها وصولاً لشمولية التفوق والسيطرة وتغلغل المخابرات السوفياتية في أميركا وبريطانيا وفرنسا والمانيا واليابان وبلجيكا وكندا وأستراليا وسويسرا والسويد وغيرها هو أكبر دليل على نجاح السوفيات في خرق كل الأجهزة السرية لهذه الدول خدمة للإنسان والاشتراكية.

المراجع

١ ـ أ. هـ. كوكريدج «أغرب جاسوسية في التاريخ» ترجمة وديع سعيد. دار الكاتب العربي. بيروت. دون تاريخ. ص ٣١ ـ ٤٨.

٢ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». دار الحياة. الطبعة الثانية. بيروت. دون تاريخ. ص ١٣٧ ـ ١٤٥.

٣ ـ د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ١١ ـ ١٨.

٤ ـ حافظ ابراهيم خيرالله. «الاستخبارات السوفياتية» (ملف عالم الاستخبارات) توزيع الشركة الشرقية للنشر والتوزيع. ابريل ١٩٧١.

٥ ـ روبرت كونكوست «الارهاب الكبير قصة تصفيات ستالين في الثلاثينات» دار النهار للنشر. بيروت ١٩٦٩.

٦ ـ نجدة فتحي صفوة «حكايات دبلوماسية» دار النهار للنشر. بيروت ١٩٧٠. ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

٧ ـ تشيكوف «دزير جينسكي» ترجمة د. سامي عمارة. دار التقدم موسكو ١٩٨٤.

٨ ـ جيرت بوشييت «أسرار المخابرات السريةِ: مهمات، طرق وتجارب». منشورات آرتو. باريس وغرونويل. دون تاريخ ص ٦١ ـ ٨٠ (بالفرنسية).



المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع الولايات المتحدة الاميركية

الجواسيس السوفيات يتواجدون كالهواء في كل مكان من العالم والأهم من ذلك فإنهم يصلون الى المنطقة التي يريدونها وهم يتنقلون على رؤوس أصابعهم، كيّ لا يشعر أحد بوجودهم، عكس ما يسعى اليه الاميركيون الذين يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة، لاعتبارهم أن الشعوب لا تحكم إلا بالعنف والقوة والإرهاب. وشتان ما بين الأسلوبين، وكذلك الهدف. وكان من الطبيعي أن لا يقتصر نشاط الاستخبارات الروسية على دول أوروبا الغربية وحدها، بل كان على رأس هذا النشاط القارة الاميركية ذاتها، وبصورة أخص الولايات المتحدة الاميركية، عدوة الشعوب رقم «واحد»، التي استأثرت بالأهمية السوفياتية القصوى في هذا المجال عبر أحد أكبر الجواسيس الخبراء وهو الكولونيل «رودولف ايفانوفيتش ابيل».

فمن هو هذا الجاسوس الخطير الذي هز الولايات المتحدة؟ وما هي أسرار مهمته الاستخبارية؟.

يعتبر «رودولف ايفانوفيتش ابيل» من أكثر عملاء شبكة الجاسوسية الذرية براعة. وهو الذي عمل دون أن يكشف أمره في نيويورك طوال تسعة أعوام، وبمهارة فائقة لم تتمكن «اف. بي. أي. F. B. I.» من اكتشافه، في نفس الوقت الذي كان يعمل فيه «وليم آرثر مورتيمر» و«جاك سوبل» وغيرهم من العملاء الذين كانوا يعملون باستقلال تام دون أن يعرفوا بعضهم البعض. كانت حياة الكولونيل ابيل في الولايات المتحدة حافلة بالأحداث

والمخاطر، فقد ولد هذا الكولونيل في موسكو عام ١٩٠٢، ودخل الولايات المتحدة من كندا عام ١٩٤٨ بعد أن دربته دائرة الاستخبارات السرّية السوفياتية، حاملاً هوية مزيفة باسم مواطن أميركي يدعى «اندرو كايوتيس» وتابع ابيل سيره الى نيويورك وقرر السكن في فندق صغير في «منهاتن»، فسجل نفسه تحت اسم «مارتين كولينز».

ولاحتراف مهنة معينة، قرر الكولونيل ابيل استعمال هوية أخرى كان «القسم الثالث» قد زوده بمستندات حقيقية عن طفل ولد في نيويورك في شهر /يونيو عام ١٩٠٢، والذي توفي بعد شهرين من ولادته. استعمل الكولونيل ابيل هذه الهوية وأصبح «اميل ر. غولدفوس»، معتبراً أن هذا التخفي كان الأفضل والأكثر أمانة.

وفقاً لقوانين معهد غاكزينا التجسسي، لم يستعمل ابيل غرفة الفندق كمعمل للجاسوسية، خوفاً من أن يكتشف خادم أوتيل طفيلي آلات التصوير الخاصة وأجهزة التصوير الدقيقة. فرأى أنه من الواجب عليه وجود العذر المقبول لاقتنائه جهازاً حيثما كان، فانتقى مهنة الفنان المصور، واستأجر ستوديو مؤلف من غرفة واحدة في بروكلين تحت اسم «اميل غولدفوس». عمل الكولونيل ـ اميل غولدفوس ـ لمدة تسع سنوات ببراعة فائقة، وتمكن من استلام وإرسال المعلومات المتعلقة بدفاع الولايات المتحدة، من والى موسكو، وهي معلومات تختص بأسلحة قوات الولايات المتحدة المسلحة ومعداتها وترتيباتها، ومعلومات تتعلق ببرنامج الطاقة الذرّية، التي كان يحولها الى رؤسائه في موسكو. وبالإضافة الى ذلك فإنه كان يقوم «بعمليات السابوتاج وإرسال المعلومات الى موسكو بالراديو» اذا ما أعلنت الحرب بين الولايات المتحدة وروسيا السوفياتية.

وخلال نشاطه الجاسوسي في الولايات المتحدة، أرسل الكولونيل ابيل معلومات سرية ـ حصل عليها من عملائه العديدين ـ بواسطة جهاز الإرسال والإرسال النقال للموجات القصيرة، وبإرساله الأفلام الميكرونية عن

المستندات والمخططات والحسابات العلمية وغيرها من المعلومات السرية. بطريقة طريفة للغاية.

وعندما ألقي القبض عليه عام ١٩٥٧، وحوكم أمام محكمة بروكلين الفدرالية ـ تجاه ستوديو التصوير الخاص به ـ اعترف الكولونيل ابيل أن قطع النقود المعدنية والأقلام وأزرار القمصان والبراغي المجوفة.. التي وجدها مكتب الـ «اف. بي. آي. F. B. I.» في غرفته، كانت أوعية لتخبئة الأفلام الميكرونية وإرسالها الى موسكو.

أما كيف ألقي القبض على الكولونيل ابيل؟ فالقصة غريبة فعلاً لعب فيها عامل الصدفة دوراً كبيراً أدى الى اعتقال جاسوس خبير ألحق بالولايات المتحدة من الأضرار ما لا يوصف.

فقد كان «جيمي بوزارت» موزع الصحف والبالغ من العمر ١٤ عاماً، يهبط درجات السلم لبناء من أبنية بروكلين، بعد أن جمع ثمن الاشتراكات لبعض من زبائنه. وكان يضم قبضة احدى يديه على قطع من النقود الفضية عندما تعثرت قدمه عند احدى الدرجات، وتساقطت القطع النقدية من يديه متدحرجة الى أسفل السلم.

وكم كانت دهشته كبيرة، عندما وقعت عيناه، عند التقاطها، على احدى هذه القطع التي كانت قد انشطرت الى قسمين مع وجود شيء صغير قد تم إدخاله بين هذين القسمين.

وجلس «جيمي» ليقص على والده ما صادفه، وكأنه يروي له قصة من قصص الجاسوسية، أو رواية من روايات الفارس المقنّع، ولقد لاحظ بعين الرضى ولأول مرة بأن الرجل العجوز كان أكثر انفعالاً منه تجاه هذه القصة. ولقد صرح الوالد أمام ابنه «جيمي» بأنه يجب إعلام الشرطة عن هذه الحادثة، وكان رأي الصبي مماثلاً لرأي والده، فتم تسليم قطعة النقود الى المباحثي «فرانك ميللي» والد أحد أصدقائه من الفتيان.

وانقضت أربعة أعوام على هذا الحادث، وفي ٧/ ٨/ ١٩٥٧، تم تقديم الكولونيل ابيل الى مجلس القضاء في بروكلين كواحد من أخطر الجواسيس الذين أمكن اعتقالهم في الولايات المتحدة الاميركية، مع العلم أن المباحثي «فرانك ميللي» كان قد وضع قطعة النقود في أيدي المباحث السياسية، حيث اكتشف فنيوها وجود فيلم صغير «ميكروفيلم» تم اخفاؤه في قلبها، وقد كان يتضمن صور ست خرائط متتابعة. هذا وقد تم إعلام «جيمي بوزارت» بينما كان يستعد لدخول الجامعة بوجوب الإدلاء بشهادته أمام المحكمة المنعقدة لمحاكمة العقيد ابيل.

وكان من الواضح تماماً أن المباحث السياسية في الولايات المتحدة الاميركية قد رفضت كشف النقاب عن الأهمية الحقيقية لقطعة النقود، ولكنهم صرحوا بأن اكتشاف تلك القطعة النقدية، ولو أنها لم تمكنهم من التوجه مباشرة الى الجاسوس الروسي، إلا أنها مكنتهم من تكوين فكرة أكثر وضوحاً عن شبكة التجسس التي كان يوجهها آبيل، وبداية للبحث الذي انتهى باعتقال ذلك الجاسوس وإصدار الحكم عليه بعد محاكمته بالسجن لمدة ثلاثين عاماً، على الرغم من أن القانون يقضي بإعدامه حتى الموت... وقد كان البحث أمراً من الأمور الصعبة للغاية، اذ كانت التحريات تقتضي تتبع الشعاب والفروع التي تتضمن بدورها المئات من القنوات الواجب اتباعها بغية الوصول الى المصدر الرئيسي. وعموماً ما كانت تنتهي تلك الجهود بمراقبة خاطئة ينتج عنها جهود ضائعة.

هذا ويمكن تكوين فكرة هامة عن أهمية الأضرار وفداحتها التي لحقت بالولايات المتحدة الاميركية من نتيجة أعمال آبيل اذا ما استعرضنا أسماء ثلاثة من بين الأشخاص الذين تم اتهامهم في ذات الوقت وفي ذات محضر الاتهام، ولم يكن أحد منهم حاضراً خلال جلسات المحكمة لأنهم كانوا دون شك قد عادوا الى روسيا. وهؤلاء الأشخاص هم:

- «فيتالي بافولوف»: وهو عضو من أعضاء شبكة الجاسوسية الروسية

ومن المقيمين في كندا والذي قام بأعمال نتج عنها اعتقال كلوزفوسن وهيري فولد وروزنبرغ وذلك في عام ١٩٤٦.

ـ أما الثاني فكان «الكسندر ميكايلوفيتش كوروتكوف»: وهو شخصية هامة في الشرطة السرية السوفياتية.

ـ والثالث «ميكاييل سيفرن»: وهو عضو قديم من الأعضاء العاملين في سكرتارية الأمم المتحدة بنيويورك.

هذا ولم يكن اعتقال العقيد آبيل عام ١٩٥٧ من قبل رجال المباحث السياسية، ومنظمة الهجرة والجنسية الاميركية بأمر يسير في حد ذاته، اذ وجهت اليه ببساطة بعض الاتهامات بسبب دخوله الى الولايات المتحدة بصورة غير شرعية، واحتجز لفترة في أحد معسكرات الاعتقال في «ماك اكين» في تكساس بانتظار إبعاده الى خارج البلاد، الى أن تم الكشف عن تلك القصة الخادعة بعد مرور اسبوعين من اعتقاله.

فبينما كان رجال المباحث يعملون على استجواب آبيل في تكساس، كان هناك عدد آخر منهم يعملون على تفتيش الاستوديو، قصر تصويره في الطابق الأخير لأحد الأبنية التي تقع في بروكلين في ٢٥٢ فيلتون ستريت، وفي الشارع المقابل لبناء مقر الأمم المتحدة.

وكان سكان فيلتون ستريت يعرفون ذلك الرجل باسم اميل ر. غولدفوس. وهو رجل قصير القامة، دمث الأخلاق، لا يجلب اليه أي انتباه، وكانت هوايته الرسم. ولقد كان ذكياً وموهوباً وفناناً كما كان يدعي ويقول: «ستكون لدي لوحات جميلة خلال خمسة أعوام». ولم يفاجأ رجال المباحث عندما عثروا أثناء تفتيشهم لصالة تصوير الكولونيل على المعدات المتعلقة بحرفته، مثل آلات التصوير، والأنوار العاكسة، ولكنهم أبدوا اهتماماً خاصاً عندما تم العثور على جهاز للإرسال من القدرة العالية والذي كان يعمل على الموجات القصيرة، وكذلك عندما تم العثور على بعض المعدات الأخرى

التي لم يكن لها أية علاقة بعمل المصور البريء. وقد أمكن حصر ١٢٦ صنفاً مختلفاً مما كان يتضمنه استوديو التصوير بدءاً من مصابيح الإضاءة التي كان بعضها يعمل على المدخرات، حتى الأجهزة القاطعة للزجاج بالإضافة الى الوثائق المتنوعة، والمنظار المزدوج الكبير، وأفلام السينما، ومجموعة من المعدات التكميلية كالمسامير والأقلام وقطع النقود وأزرار الأكمام، وأقراط الآذان، كما كان يمتلك التجهيزات المستخدمة في طبع الوثائق وتصغيرها حتى تصبح بحجم رأس الدبوس. ولقد رفض رجال المباحث أيضاً نشر اللائحة المتضمنة للمعدات التي تم اغتنامها من ستوديو التصوير. كانت مهمة الكولونيل آبيل في أعمال التجسس السوفياتية تتلخص في كونه رئيساً مقيماً من رؤساء الشبكات، ومن المحتمل أيضاً بأن لا تكون كل الأنوار المسلّطة على أعمال موجة الشبكة قد كشفت بشكل كامل عن كل أدواره، فلقد كان يستخدم جهاز الإرسال على الموجات القصيرة لتلقي كافة الأوامر التي ترسلها اليه موسكو وهو الذي يقوم بنقل تلك الأوامر الى بقية أعضاء الشبكة. كما كان بدوره يبعث بنتائج اتصالاته الى القيادة العامة السوفياتية بشكل رمزي معقد للغاية، كما كان أعوان آبيل يستخدمون عدداً من صناديق البريد لإيصال المعلومات اليه. ولقد أمكن اكتشاف هذه الصناديق بفضل وجود بعض الملاحظات التي أمكن العثور عليها عندما تم تفتيش غرفته في الفندق الذي كان يقيم فيه... وقد كان هناك أيضاً الآخرون من العملاء والذين يقيمون على مسافة بعيدة جداً تصل حتى المكسيك. كما كان هناك عدد آخر يقوم ظاهرياً بدور له أهميته في أعمال... الجاسوسية وهم موزعون على الأماكن الهامة مثل «كينكي» والتي تقع في ماساشو، وهي قاعدة جوية، بحرية هامة، و«نيوهايد بارك» في لوس انجلوس، وهي تقع على مقربة من مصنع لإنتاج المعدات الكهربائية المستخدمة في صناعة الصواريخ... ولعل المباحثيون في تلك الأثناء لم يتمكنوا من إدراك، السبب الذي دفع آبيل لوضع واحد من المعاونين له في «ساليدا» الواقعة في كولورادو، وهي ليست إلا مركزاً صغيراً للإصطياف يقع في قلب الجبال الصخرية، أما طريقة نقل

الرسائل المختلفة من الوثائق والمستندات المصورة فكانت تتم بواسطة استخدام مختلف الأساليب، كالمسامير، وقطع النقود، والجواهر المجوفة، كما كان يتم تسليم بعض الأفلام الصغيرة - ميكروفيلم - الى العملاء الموثوقين الذين يحملونها معهم الى أوروبا الغربية، ويتم نقلها من هناك الى روسيا، بالإضافة الى أن بعضها كان يتم إرساله بصورة مباشرة الى الشرق.

لقد كانت القواعد الأساسية التي يستخدمها آبيل من الأشياء التي يعرفها تماماً رجال المباحث السياسية الأميركية، ولكن معرفة أولئك الأشخاص الذين يزاولون أعمال الجاسوسية تلك وتحديدهم كان على ما يبدو هو الشيء الرئيسي الذي له أهميته الخاصة للكشف عن تلك الأعمال، لا سيما وأن.. الأميركيين كثيراً ما كانوا يخدعون في تحرياتهم كما حدث في فقد «بيرل روج» حيث كانوا يضلون الطريق لمعرفة الشخص المقصود. ومن خلال أعماله التجسسية، أثبت الكولونيل آبيل بأنه كان عميلاً من أغرب الجواسيس وأخطرهم، كما أنه من الصعب بدون شك، تقدير أهمية الأضرار الفادحة التي ألحقها بالولايات المتحدة الاميركية نتيجة لنشاطه السري الخطير.

لقد كان الكولونيل آبيل مصوراً فوتوغرافياً، وخبيراً في الاختزال والتسجيل، ومهندساً فذاً في الكهرباء، ورساماً رائعاً، وفناناً، كما كان قد بدأ أخيراً في أبحاث مجال الفضاء. وبالإضافة الى كل ذلك فقد كان يتقن كلاً من اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية اضافة الى لغته الأصلية.

وكان من معاوني الكولونيل آبيل جاسوس خطير أيضاً يدعى «رينو هايهانن» ولقبه «ماكي» وهو سوفياتي من مواليد قرية «كاسكيسلرى» الواقعة بالقرب من لينغراد، وقد أصبح خبيراً في المخابرات السوفياتية في عام ١٩٤٣. وكان يلتقي بالكولونيل في أحد محطات المترو اذا كان هناك ضرورة للقائهما. أما اذا أراد اعطاءه معلومات كان يتركها في مخابيء سرية في مكان مجوّف تحت أحد السلالم في «بروسكيت بارك».

وفي لحظة من اليأس والخوف قرر «رينو هايهانن» انهاء عمله مع

المخابرات الروسية بأي شكل، فسافر الى باريس وأخذ يتردد الى أحد مقاهي «الرصيف» في سان جرمان. وتوطدت الصداقة بينه وبين أحد الكرسونات، وكان لبقاً، فأفضى له «هايهانن» بأنه يود التعرف على أي مسؤول بالسفارة الاميركية، فرحب الكرسون بذلك، لأنه نفسه كان من عملاء المخابرات الاميركية. فعرّفه حالاً على شخص يدعى «جون» وهو مسؤول المخابرات المركزية الاميركية في السفارة الاميركية في باريس. ولم تمض دقائق حتى كان الاثنان «جون» و«ماكي» يتحادثان في المقهى، وقد صرح هذا الأخير الى «جون» بأنه ضابط في هيئة المخابرات الروسية وزوجته موجودة في أميركا، ولا يريد العودة الى الاتحاد السوفياتي. وفي مكتب المخابرات الملحق بالسفارة الاميركية أفضى «ماكي» بكل شيء، حتى خطر لأحد رجال المخابرات الاميركية وكان قد حضر فوراً من واشنطن لحضور التحقيق بناء لطلب السفارة المستعجل. . . ان يعرض عليه الفيلم الذي عثر عليه داخل قطعة العملة المعدنية في بروكلين منذ أربع سنوات، فقام «ماكي» حالاً بفك رموز الفيلم وقراءته وتسجيل ما حوى. . . وصرح «هايهانن» أن هذه الرسالة موجهة اليه بالذات وفيها أنهم - أي رؤساءه - في المخابرات سلموا زوجته مبلغاً من المال ولكنه لم يعرف كيف تسربت قطعة النقود الى بائع الصحف.

وبعد مراقبة دقيقة فرضت على منزل المصور «غولدفوس»، وهو الكولونيل آبيل، تمكن رجال المباحث الاميركية من إلقاء القبض عليه. وكان «رينو هايهانن» الشاهد الرئيسي في جلسات محاكمة رئيسه الكولونيل.

إلا أن روسيا وسفيرها في واشنطن تظاهروا بتجاهلهم لإعتقال آبيل. وعلى اعتبار أن هذا الأخير جاسوس محترف فلقد تقبل ذلك الاهمال المتعمد ورضي بذلك المصير الذي ينتظر كل جاسوس عندما يقع في قبضة الأسر.

وعندما تم إعلام آبيل بأنه يستطيع انتقاء محام للدفاع عنه، طلب السماح له بالإتصال بالسيد «جون آبت» والذي كان لفترة طويلة مستشاراً للإشتراكيين الاميركيين، وقد اعتذر هذا المحامي عن الترافع في تلك

الدعوى بالذات والتي لها صفة خاصة بحجة أنه منشغل جداً ولا يوجد لديه من الوقت ما يمكنه من العمل في سبيل موكل جديد. عندئذ استنجد آبيل بنقابة المحامين في بروكلين التي عملت على تعيين محام هو «جيمس ب. دونوفان» الذي كان واحداً من أعضاء وزارة الإعلام أثناء محاكمات «نورمبرغ» بعد الحرب العالمية الثانية.

ولقد لعبت شهادة «هايهانن» بديهياً الدور الرئيسي في محاكمة آبيل، ولكن مجلس المحلفين والذي كان يتكون من تسعة رجال وثلاث نساء ربما كان قد تأثر بصورة خاصة بتلك الشهادة غير المنتظرة.

وقد صرح آبيل رداً على شهادة هايهانن بأنه تعرف عليه بواسطة الرقيب الاميركي «روي رودس» المولود عام ١٩١٧ في اويلتون في ولاية أوكلاهوما، وهو من وزارة الدفاع في الولايات المتحدة وموظف سابق تابع للملحق السوفياتي في كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، في موسكو، التي غادرها في يونيو ١٩٥٣. وبقي يتعاون مع الجواسيس الروس بعد أن عاد الى الولايات المتحدة ملتحقاً بمدرسة اتصالات الجيش وهو قسم موجود في مدينة سانت لوبس في كاليفورنيا، ودرب هناك على وظيفة عامل ميكانيكي. وقد كان الرقيب «روي رودس» صاحب ثلاث كاراجات تديرها شقيقته في «رد بنك» في نيوجرسي. كما كان والده السيد و. أ. رودس، يقطن الولايات المتحدة. وكذلك شقيقه حيث يعمل كمهندس في مختبر ذري في كامب جيورجيا مع (عديل) والده. هذا وقد حكم على الرقيب «روي رودس» بالسجن لمدة خمسة أعوام لقيامه بتسليم أسرار هامة الى روسيا عندما كان يعمل كفني في السفارة الاميركية في موسكو.

ولقد استمع الكولونيل آبيل بصمت وهدوء الى الحكم الذي صدر عليه في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧ والذي نطق به رئيس المحكمة القاضي «مورتيمار بييرز» وبموجبه اقتضى سجنه لمدة ثلاثين عاماً، على الرغم من أن القانون الخاص بأعمال الجاسوسية والتخريب والذي صدر في عام ١٩٥٤

يسمح بتطبيق عقوبة الإعدام حتى الموت.

إلا أن الكولونيل آبيل لم يمض في سجنه أكثر من خمس سنوات، حيث أن الاتحاد السوفياتي كان قد عمل على استرجاعه مقابل تحرير «فرنسيس غاري باورز» جاسوس الفضاء الاميركي وقائد طائرة.. التجسس «يو ٢ U_2» الذي تم اسقاطه في عام ١٩٦٠ فوق الأراضي الروسية، وقد تمت عملية التبادل تلك في برلين في العاشر من شباط/فبراير عام ١٩٦٢.

وأخيراً، نستطيع القول بأن «الأمانة» في الاتحاد السوفياتي تعتبر من الأقانيم المقدسة انطلاقاً من قدسية الإنسان وعظمة قيمته، وليس كما يعتبره المعسكر الغربي والنازية والفاشية، رقماً في قطيع بشري لا قيمة له إلا ايصال الطغاة الى سدّة الحكم.

المراجع

١ ـ ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت. يونيو ١٩٦٣. ص ٢٥٤ ـ ٢٦٣.

٢ ـ كيرت سينجر «اعلام الجاسوسية العالمية» ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت ١٩٦٥. ص ٣١٧ ـ ٣٢٨.

٣ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». ص ١٤٥.

٤ ـ أ. هـ. كوكريدج «أغرب جاسوسية في التاريخ» ترجمة وديع سعيد. دار الكاتب العربي. بيروت. دون تاريخ.

٥ ـ أحمد هاني «الجاسوسية بين الوقاية والعلاج» الشركة المتحدة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٧٤. ص ٥١ ـ و٦٠ و٧٨.

٦ ـ اندرو تولي «حقيقة الجاسوسية الأميركية». ترجمة فؤاد أيوب. دار دمشق. دون تاريخ. ص ٢٩٨ ـ ٣١٤.



المخابرات السوفياتية
تتغلغل في نخاع بريطانيا

كم هي عظيمة بالفعل تلك العبارة القائلة «بأن الذين يتنقلون على رؤوس أصابعهم غير الذين يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة»، هذا ما ينطبق على السوفيات الذين يتسللون في المدن والمناطق والدول كما يتسلل الهواء من خرم الإبرة، وكذلك على الاميركان الذين يوهمون البشرية بأن التاريخ لا يكتب إلا بالأحذية التي ينتعلونها. . وشتان ما بين الأسلوبين. . .

إلا أن ما يجب الإشارة اليه هو أنه ليس من السهل علينا أن نفهم كيف يمكن «للجواسيس الحمر» أن يعملوا بنجاح لسنين في بلد أجنبي دون أن يفتضح أمرهم. أما ما يجب الاعتراف به هو أن نجاحهم الرائع يعود الى تدريبهم الفريد من نوعه والى كون الجاسوس الروسي لا يشغل باله بالأمور المالية. .

وعندما كانت هناك مدارس ومعاهد كبرى في الاتحاد السوفياتي، تعمل على تخريج «الجواسيس الحمر» وفرزهم للعمل في الدول الغربية، فقد كانت بريطانيا تلك الامبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس، على رأس اهتمامات الجاسوسية الروسية. .

ولعل نموذج «الدكتور جفري نوبل» من أهم هذه النماذج وأشهرها.

فما هو سر هذا الجاسوس الروسي؟ وماذا كانت مهمته؟.

ففي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، تسلل الى انكلترا، شخص غريب، كان

اسمه «مارك بوريسوفتش زاغورسكي» وكان عميلاً للمخابرات الروسية. ولد عام ١٩٢١ في «فورونييز» وصنف عام ١٩٣٩ على أنه «صالح للمهمات الخاصة» ووضع على لائحة المنوي إرسالهم «للخدمة في المملكة المتحدة».

عند دخول مارك الى معهد «غاكزينا» عرف باسم «الدكتور جفري نوبل» وكان رقم تسجيله ب - ٤١٠٢١١/ ٢٦١ - ج - وقد أمضى سبعاً من سنين تدريبه العشر في «غاكزينا» حيث كان الجاسوس السوفياتي الكبير «غوردون لونشديل». ولكن هذين العميلين اللذين لاقيا حتفهما لأنهما لم يستطيعا الخروج من انكلترا في «الوقت المناسب» لم يلتقيا في «غاكزينا» لأن كلاً منهما كان يتدرب في قسم مختلف عن الآخر.

وفي نوفمبر ١٩٥٢، عندما أصبح «الدكتور جفري نوبل» صالحاً للعمل في الخارج جرى تهريبه الى انكلترا، حيث كان قسم المواصلات في القيادة العامة للمخابرات في موسكو بحاجة ماسة الى جاسوس في انكلترا رغم عدم توفر الطريقة المشروعة لإدخاله الى هذا البلد وعدم توفر النقل الأمين. لذلك وضع الدكتور نوبل على غواصة تابعة للبحرية الحمراء ليجري تهريبه الى انكلترا. وعندما وصلت الغواصة الروسية الى شواطىء انكلترا تحت ستار الظلام وتحقق قبطانها أن أمر وصولها لم يعلم به أحد، أمر الدكتور نوبل بالسباحة في المياه الباردة الى وطنه الجديد. كانت المسافة قصيرة وكان نوبل مجهزاً أحسن التجهيز لمهمة خاصة. كان يرتدي ثياباً صوفية وكان يحمل حقيبة انكليزية محفوظة في عوامة صممت خصيصاً يحملها السابح الوحيد..

من على ظهر الغواصة كان ضابط أمن الدولة يراقب الدكتور نوبل. ولما وصل هذا الأخير الى الشاطىء دون عناء ودون أن يكتشف أمره، تقيد بالتعليمات فأخرج محفظته الناشفة من الواحة العازلة للماء ووضع في مكانها ثياب الغوص والملابس الصوفية وبينما كان يرتدي ثياباً انكليزية الصنع كان

الرجال على الغواصة يسحبون اليهم حوائج الجاسوس بواسطة حبل رفيع مربوط بالغواصة. لما تحقق نوبل من أن أحداً لم يره، توجه الى البر وفق الخطة المرسومة بدقة. ولم تقلع الغواصة إلا عندما شوهد نوبل يبدأ رحلته بأمان.

وصل الدكتور جفري نوبل الى «مدلز بوره» دون صعوبة، ومن هناك توجه الى «أدنبرة» حيث مكث يومين ليتأكد من أنه غير ملاحق. وبعد أن ادعى أنه طبيب انكليزي في اجازة، عرج نوبل في طريقه الى «كازلايل» وكل ما عرف عنه أنه كان لطيفاً للغاية ومنطوياً على نفسه لا يستقبل الزائرين. ولكن خلف هذا القناع كان يختفي جاسوس سوفياتي لامع حصل على أعلى الدرجات خلال تدريبه في «غاكزينا». وكان ملفه في مديرية الخارجية في موسكو يحمل الملاحظة التالية: «أكثر العملاء تبشيراً بالخير»..

نفذ الدكتور نوبل خلال الشهر الأول من اقامته في «بيمليكو» التعليمات المعطاة له وهي أن لا يقوم بأي نشاط، وأن يعوّد نفسه على محيطه الجديد. ورغم أنه عمل وفق التعليمات بمضمونها العام، فقد راح يبحث عن عملاء يساعدونه في مهمته. استطاع نوبل أن يصادق العديد من الشباب والشابات من خلال تردده الى البار القريب من منزله والى المطعم المتواضع قرب محطة فيكتوريا والى الحفلات الراقصة في الفنادق الشعبية. فكان حالما توثقت أواصر الصداقة مع أحد هؤلاء يسعى الى معرفة المزيد عنه فيستطيع بذلك التأكد اذا كان صالحاً للعمل أم لا..

كانت مهمة الدكتور نوبل ـ أحد الجواسيس الروس المقيمين في انكلترا ـ أن ينشىء جهازاً من ضباط الاتصال والمخبرين و«مستلمي البريد» ليكون عملهم تزويد موسكو بالمعلومات الهامة. أما القيادة العامة للمخابرات في موسكو التي يزودها مخبروها باستمرار بأسماء الأجانب الصالحين للعمل وبالتفاصيل الكاملة عنهم لم تعط نوبل أياً من أسماء هؤلاء. فقد كان عليه أن يجدهم بنفسه..

تعرف نوبـل في حفلة رقص قرب «بيكـاديللي سركس» الى فتـاة جميلة حمراء الشعر تدعى «سوزان» وسرعان مـا أصبحت ـ دون علمها ـ أول عضـو في جهازه الجاسـوسي. كانت سـوزان تعمل في شـركة إعـلان شهيرة وتملك شقة مستقلة في «ماربل ارتش» فاعتبرها الدكتور نـوبل صـالحة لأن تلعب دور «صندوق البريد». فقد كانت انكليزية الأصل لا يمكن أن تثير الشبهات ويؤهلها عملها أن تستلم رسائل من الخارج. فاستغل إعجابها وسعى بكـل الطرق الى تحويل صداقتهما الى حب. لكن لم يرتكب خطأً دعـوتها للعمـل معه بـادىء ذي بدء. فقد كان خريج «غاكزينا» حذراً للغايـة. لم يكن من داع لكي يتعجل الأمور ويخاطر بإثارة شكوك الفتاة. فقد كان من الطبيعي بـالنسبة لـطبيب مثله أن ترده الرسائل والبطاقات البريدية من دول صديقة في القارة الأوروبية. وبما أن تنـظيم جهازه سيستغـرق بضعة أشهـر فيضطر آنـذاك تـأمين الاتصـال مـع موسكو بواسطة البريد غير المباشر فلا داعي للعجلة..

لـذلك بعـد ست أسابيـع من تعرّفـه الى سوزان طلب منهـا أن يستعمل شقتهـا لاستلام رسـائله من الدانمـرك وفـرنسـا وسـويسـرا أو الـدول الغـربيـة الأخرى. وكان تبريره لهذا الطلب أن الرسائـل التي تصل الى منـزله لا تـوزع على السكان إلا دفعة واحدة. وقد كـان بسبب الاهمال في التـوزيع يتـأخر في استلام بريده. في ذلك الحين كـانت أواصر الصـداقة قـد توطـدت بين نوبـل وسوزان. وغالباً ما كانا يتحدثان عن مشروع خطوبة في المستقبل. لذلك رضيت سوزان، والتي لم تذهب الى منزل نوبـل، أن تصل رسـائله الى عنوانهـا وقد كانا يلتقيان يومياً ويستلم منها بريده دون تأخر.

منـذ ذلك الـوقت حتى آخر أيـام تجسسـه في انكلتـرا، أصبح عنـوان سوزان ـ صندوق البريد ـ واسطة لاستلام الـرسائـل السريـة من القيادة العـامة للمخابرات في موسكو. ورغم أن الفتـاة غالبـاً ما كـانت تعطي حبيبهـا رسائـل عـادية وبـطاقات بريديـة ملونة، فهي لم تشـك مطلقـاً أن تحت طوابـع البريـد الأوروبية كانت توجد تعليمات حول النشاط الجاسوسي. وطوال علاقة سـوزان مع «جيف» ـ كما كـانت تسميه ـ لم يسـاورها الشـك مرة واحـدة أن صديقهـا

اللطيف الطيب القلب الذي وعدها بالزواج لم يكن طبيباً بريطانياً شاباً بل جاسوساً روسياً خطيراً له أهميته. .

استطاع الدكتور نوبل خلال الشهر الأول من اقامته في لندن أن يجمع لائحة من الناس اعتبرهم صالحين للعمل. ورغم أنه كان مستعداً للبدء في العمل، فقد تذكر تدريبه في «غاكزينا» وأدرك أنه من العبث أن ينشىء جهازاً من المخبرين وضباط الاتصال والعملاء المختلفين دون أن يجد مكاناً يجتمع فيه بهم وينظم اتصالاً مستمراً معهم. فلم تكن شقته أو منازلهم أو المطاعم المجاورة أو أية أمكنة أخرى صالحة للإجتماع، وكانت كلها معرّضة لأن تثير الشبهات عاجلاً أم آجلاً. .

ومن الخطأ الكبير أن نفترض أن استعجال الدكتور نوبل للحصول على نتائج كان بدافع إصرار القيادة العامة في موسكو. على العكس تماماً، كان رؤساؤه يؤكدون عليه في كل الرسائل أن يأخذ الوقت اللازم لتنظيم جهاز جاسوسية فعال.

وكان أن وقع بصره على دكان صغير لتصليح الأحذية. واعتقد أنه صالح كمركز للإجتماع. فدخله ليتحقق من عدد الذين يعملون فيه. وبينما كان يشتري علبة دهن لمسح الأحذية، بدأ يحادث الرجل الذي كان يبيعه اياها. وسرعان ما علم أنه صاحب الدكان. تحدث نوبل طويلاً معه وعلم أنه فتح دكانه حديثاً ووضع فيه كل ما ادخره من مال، ولكنه لاقى مضاربة شديدة من جيرانه مما جعله لا يكاد يحصل على لقمة العيش. وكان هذا تماماً ما يريده الدكتور نوبل. وتبين له أنه اكتشف بطريق الصدفة الرجل الذي كان يبحث عنه. لكنه لم يعرض على مصلح الأحذية العمل معه، بل قال له أن حذاءه الآخر بحاجة الى تصليح وأنه سيصبح زبوناً دائماً اذا ما رضي عن العمل.

منذ ذلك الوقت، أخذ الدكتور نوبل يتردد باستمرار الى الدكان الصغير يجلب أحذية للتصليح أو يشتري دهناً للمسح أو أشرطة لأحذيته. وكان في

كل مرة يجر صاحب الدكان الى حديث ويعلم منه أكثر فأكثر دون أن يفضح أمام الرجل اهتمامه البالغ.

بعد ثلاثة أسابيع من زيارته الأولى، دخل ليشتري دهناً لمسح الأحذية وكان قد صمم على أن يدعو الرجل العمل معه. ولكنه قبل أن يقدم عرضه قال له صاحب الدكان أنه مضطر الى إقفال دكانه في نهاية الأسبوع. وللمرة الثانية يحالف الحظ الجاسوس نوبل، فقال للرجل أنه على استعداد لمساعدته حالياً حتى يستمر في عمله..

كانت تلك المرة الأولى التي يعرض فيها مساعدة مالية على مصلح الأحذية دون أن يطلب منه ضمانات فكاد الرجل أن لا يصدق أذنيه. ولكن عندما أخرج الدكتور نوبل ورقة المائة جنيه من جيبه وسأله اذا ما كانت كافية، تأكد صاحب الدكان أن العرض صادق. لذلك وقع دون معارضة على وصل استلام المبلغ الذي كتبه الدكتور نوبل..

بعد انتهاء العمل، دعا نوبل شريكه الجديد لتناول كأساً من المشروب في منزله. وبعد أن شربا بضعة كؤوس طلب منه أن يعود معه الى الدكان حيث يمكنهما التحدث دون خوف..

كان الجاسوس السوفياتي البارع مصمماً على الشروع في استعمال الدكان دون تأخير. وفي سبيل المزيد من الحذر أضاف الى الإيصال باستلام المائة جنيه أن هذا المبلغ دفع ثمناً لمعلومات سرية بغية التهديد بفضح الرجل اذا ما اقتضى الأمر. وكم كانت دهشته عظيمة عندما لم يمانع صاحب الدكان في أن يستعمل نوبل دكانه، بل سأل فقط عن المبلغ الذي ستدفعه المخابرات الروسية.

سر الدكتور نوبل في أن اتفاقهما السريع لم يكن مناورة للتخلص منه أو إخبار البوليس عنه. فالرجل كان بحاجة ماسة للمال فعرض عليه مبلغ مائة جنيه شهرياً، هكذا رضي الطرفان.. فالدكتور نوبل وجد مركز اجتماع أمين،

ومصلح الأحذية سنحت له الفرصة ليكسب أضعاف ما كان يكسب. .

بعد أن وجد الدكتور نوبل مركزاً للإجتماع، بدأ البحث بسرعة عن مخبرين. كانت لائحته تحوي اسم موظف في الحكومة مسؤول عن الوثائق السرية، ومهندس في مؤسسة للأبحاث الالكترونية لمشاريع عسكرية سرية ورجال محترمين آخرين صالحين للإنضمام الى الجهاز. .

كان المهندس الضحية الأولى. . فرغم أنه يتقاضى راتباً محترماً، كان يتذمر دوماً من وضعه المالي ويقول أنه يعمل ساعات اضافية ولكن ما يتبقى له من راتبه بعد دفع الضريبة لا يكفي لفك الرهن عن بيته ولإعالة زوجته وولديه على مستوى يليق برجل في مهمته. كان يحب الويسكي ويلبي دعوات الدكتور نوبل الدائمة للشراب.

وفي ذات يوم طلب منه الجاسوس أن يأتي له بنشرة تقنية ودفع له خمسة وعشرون جنيهاً ثمناً لها. تعجب المهندس من هذا وأبلغه أن بالإمكان شراء هذه النشرة من أية مكتبة بنصف جنيه. وأن الدكتور نوبل يستطيع أن يجد نسخة عنها في شارعه بالذات. ولكن عندما أوضح له الجاسوس الذي يملك جواباً ملائماً لكل مناسبة أن تدرج كمية من المال في رهان كرة القدم، وأن هذا المبلغ إعانة له لدفع ديونه، وأصر على أن يشتري له ويسكي آخر، ولم يجد المهندس أي خطر في أن يقبض المبلغ، ففعل.

وهكذا أوقع نوبل فريسته في الشرك. فعند لقائهما الثاني جلب المهندس النشرة التقنية واجترع كأساً من الويسكي قدمه له نوبل. شعر هذا الأخير بالارتياح فعرض على صديقه مساعدات جديدة. ولما أجاب المهندس الذي لم يرتب بشيء أنه دوماً على استعداد لكسب المال، اقترح عليه نوبل أن يوصله بسيارته الى «ماربل آرتش».

وعندما اختلى الرجلان في السيارة طلب منه الجاسوس معلومات سرية عن الأبحاث الالكترونية في مؤسسته. غضب المهندس في بادىء الأمر وصاح أنه لن يبيع معلومات سرية لأحد مهما كان الثمن. لكن نوبل هدده

بالخمسة والعشرين جنيهاً التي أعطاها له قائلاً أنها كافية كدليل على جرمه، وطمأنه أنه سيدفع له مئات الجنيهات ثمن معلومات مهمة. وعندما أوشك المهندس على أن يوافق أعاد الدكتور نوبل تطبيق ما تعلمه في «غاكزينا» وقال لصديقه أنه لا يطلب قراراً مستعجلاً بل يفضل منه أن يفكر بالأمر ملياً قبل أن يتخذ قراراً خطيراً كهذا. واقترح على المهندس أن يبلغه قراره النهائي في اليوم التالي. وحتى يعطيه مزيداً من التشجيع دون أن يجعله يرتاب في شيء أعطاه مئة جنيه «كعربون صداقة».

وبدأ الجاسوس يقلق عندما لم يصل صديقه الى البار في الموعد المحدد. وأخذ يشك أنه قد قرر عدم العمل معه أو أنه كان يحفر له فخاً لمساعدة البوليس، ولكن رغم ذلك، قرر أن ينتظر مدة أطول. وبعد أربعين دقيقة وصل الرجل الذي قال أنه تأخر بسبب عمل مهم. وبعد أن شرب الويسكي اقترح على نوبل الخروج في نزهة بالسيارة..

لم يفاجأ الدكتور نوبل عندما سمع أن صديقه قرر قبول العرض بعد أن فكر به ملياً، لكنه فوجىء عندما علم أن السبب الحقيقي لتأخره أنه كان يتحين الفرصة لجلب وثيقة مهمة موجودة على القائمة السرية. وقد استطاع الحصول عليها لتصويرها. وفي بداية فبراير ١٩٥٣، صنفت القيادة العامة للمخابرات في موسكو جهاز التجسس الذي بدأ الدكتور جفري نوبل من لا شيء على أنه أكثر الأجهزة نشاطاً وأهمية. ورغم أن هذا الجهاز لم يكن مسؤولاً عن الجاسوسية العسكرية، فقد استطاع أن يوفر معلومات هامة عن الأبحاث الالكترونية المتعلقة بالأسلحة السرية. وتزايد نشاط نوبل لكنه استطاع بحذره وحرصه الشديدين أن لا يثير الشبهات حوله. فرغم أنه توفر لديه عدد هائل من المعلومات والوثائق المصورة، كان يحرص على أن لا يزيد نسبة البريد الذي يتلقاه أو يرسله. وكان يفضل صرف كميات كبيرة من مال المخابرات لإرسال أشخاص الى الخارج..

وأعلن نوبل خطوبته على سوزان. وأعلن أمام أصدقائه في الحفلة التي

أقيمت بهذه المناسبة أن موعد الزواج سيكون يوم عيد الميلاد التالي، ظناً منه أن هذا يساعده على أن يظهر أكثر استقراراً ووجاهة أمام الناس.

ورغم أن خداعه للناس كاد أن يقرب حد الكمال، فإن «سكوتلانديارد»، و«مركز م. أ. ٥» استلما اخبارية من الخارج تقول أن جاسوساً سوفياتياً قد دخل بريطانيا سراً في نوفمبر ١٩٥٢، والمفروض أن يكون اسمه «كولين وورد» وأدت تحريات الشرطة الى الشقة المتواضعة في «بيمليكو»، حيث وجدوا أن أوصاف «كولين وورد» مطابقة للدكتور نوبل. وقد كان الجاسوس الروسي الماهر قد ارتكب خطأً واحداً. كان يحتفظ في شقته بأربع جوازات سفر بريطانية مزورة. ورغم أن رجال المباحث لم يجدوا معدات الجاسوسية أو لائحات أعضاء جهاز التجسس، فقد عثروا على دليل يثبت أن الإخبارية القادمة من الخارج صحيحة. كانت الجوازات البريطانية المزورة معطاة من قبل سلطات في مناطق مختلفة من انكلترا وتحمل الأسماء التالية: الدكتور نوبل، موريس وورد وكانت كلها تحمل صورة الرجل المعتقل. ففي واحدة كان رأسه مكسواً بالشعر وفي الثانية كان أصلعاً وفي الثالثة كان يرتدي نظارة شمسية أما في الرابعة فقد كان أصلع الرأس ويرتدي نظارة طبية..

اعتقل «مارك بوريسوفتش زاغورسكي» الملقب بالدكتور جفري نوبل وكولين وموريس وورد، وأخذ الى مركز الشرطة في شارع جرالد، حيث رفض الإدلاء بأي اعتراف. وقبل أن يبدأ ضباط الشعبة بالتحقيق معه، وجد مشنوقاً في زنزانته بعد اثنتي عشرة ساعة من اعتقاله. وبعد انتحاره، تفرق الجواسيس الذين كانوا يساعدونه. وهكذا خسرتهم المخابرات الروسية..

والواقع أن الدكتور جفري نوبل وشبكته التجسسية لعبوا دوراً هاماً وكبيراً في التغلغل في أعصاب بريطانيا وشرايينها وحتى في عظامها أيضاً. كما كانت الخسارة التي منيت بها المملكة عبر هؤلاء الجواسيس الحمر، عظيمة جداً من خلال تلك المعلومات والوثائق السرية التي كانت على جانب كبير من الخطورة..

وهكـذا أثبتت هذه الشبكـة أن الامبراطـورية التي كـانت لا تغيب عنهـا الشمس معرضة لأن تتغلغـل فيها «أشعـة الشمس السوفيـاتية» ولكن لمصلحـة السوفيات هذه المرة وليس لمصلحة بريطانيا وعظمتها الاستعمارية. .

المراجع

١ ـ ج. برنارد هاتون «مـدرسة الجـواسيس» ترجمـة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ١١٣ ـ ١٢٥.

٢ ـ مجلة «الجيـل» القبرصيـة. عرض ميخـائيل الخـوري بعنـوان: «فضيحـة العصر: مدير المخابرات البريطانية جاسوس سـوفياتي» العـدد الرابـع. المجلد الخامس. ابريل ١٩٨٤. ص ١٤٥ ـ ١٥٦.

والمجلد الخامس. العدد الخامس. مايو ١٩٨٤. ص ١٤٤ ـ ١٥٥.



المخابرات السوفياتية تتغلغل
في نخاع اليابان

تعتبر شبكة التجسس السوفياتي في اليابان من أهم الشبكات الجاسوسية التي حققت لروسيا أكبر المنجزات وأعظمها في التاريخ، وقد أجمعت كافة المؤلفات والآراء التي تناولت أعمال هذه الشبكة التي كان يرأسها الدكتور «ريتشارد سورج» على تأكيد أهمية المكتسبات والدور الكبير الذي قامت به في خدمة الأهداف التكتيكية والاستراتيجية للإتحاد السوفياتي.

انطلاقاً من ذلك فقد ذكر رونالد سميث في كتابه «فن الجاسوسية» أن هذه الشبكة حققت واحداً من أهم الأعمال في تاريخ الجاسوسية العالمية. كما أوضح الملحق السياسي بسفارة المانيا بطوكيو في الفترة التي عاصر فيها نشاط هذه الشبكة أنه يعجب بما قام به سورج من أعمال باهرة في الجاسوسية وهي تكاد تكون ضرباً من المستحيل، حيث كان من أقدر الجواسيس وأشدهم خطراً في جميع العصور. أما كورث سنجر فقد وصفه بأنه أعظم جاسوس في تاريخ روسيا القيصرية والشيوعية.

وفي الحقيقة اننا لا نبالغ القول بأن النتائج النهائية للحرب العالمية الثانية قد ترتبت على الأعمال الهامة والمتوالية لهذه الشبكة. وهو ما يضع انجازاتها في مقدمة العمليات البارزة التي قامت بها أجهزة المخابرات المختلفة في الحرب العالمية الثانية بل وخلال جميع المراحل التاريخية السابقة.

والجدير بالذكر أن الفضل الأول في انتصار القوات السوفياتية الحاسم على الجيش الالماني في معركة ستالنجراد، والذي كان بداية النهاية للرايخ الثالث، يرجع الى المعلومات التي حصل عليها العملاء السوفيات في اليابان، والتي مكنت من نقل نحو مليونين من الجنود السوفيات من الحدود الشرقية والجنوبية لسيبيريا الى ميدان القتال حيث كانت الحاجة اليهم ماسة، مما أدى الى الحيلولة دون سقوط العاصمة السوفياتية في أيدي القوات الألمانية ثم هزيمتها بعد ذلك في جميع المعارك الهامة التالية.

فمن هم عناصر هذه الشبكة التجسسية؟ وما هي أسرارها؟.

لا شك أن نجاح الشبكة يرجع في جانب كبير منه الى شخصية وأعمال رئيسها الدكتور ريتشارد سورج الذي يعتبر بحق من أفضل وأشهر رجال المخابرات على مر التاريخ. فهو الماني الجنسية، ولد عام ١٨٩٥ من أبوين المانيين. وقضى فترات صباه وشبابه بين مواطنيه مما يثير بالتالي حقيقة الدافع الذي جعله من أكثر الشيوعيين الأجانب ولاء للإتحاد السوفياتي، وللشيوعية الدولية، ومن أفضل العملاء السوفيات منذ ثورة اكتوبر حتى الوقت الحالي. وتعطينا الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التي عاصرها والمبادىء الشيوعية التي تأثر بها تفسيراً واضحاً لهذه الحقائق.

فقد تأثر سورج بهزيمة بلاده في الحرب العالمية الأولى، والظروف الاقتصادية السيئة التي عاشتها في أعقاب الحرب والتي عانى من ويلاتها الكثير، حيث أصبح عاطلاً عن العمل، ولا يجد ما يستعين به على مواجهة متطلبات الحياة. وقد انعكس ذلك على تفكيره ومعتقداته الى حد التذبذب، ومهد كل هذا للتحول الرئيسي في آرائه ونظرته للمجتمع الألماني وغيره من المجتمعات.

وكانت الخطوة الكبرى التي أعقبت ذلك هي التجاءه الى قراءة المؤلفات والمراجع الشيوعية خاصة كتابات ماركس ولينين، والتي جعلته يؤمن بأن الأنظمة التي قامت على أساسها هي الوحيدة التي يمكن أن تحل جميع

مشاكل المجتمع الألماني، فضلاً عن مشاكله الخاصة، (وكان رائده في ذلك جده لأبيه أدولف سورج الذي كان سكرتيراً خاصاً لكارل ماركس) وقد أدى هذا الاتجاه في النهاية الى التحاق ريتشارد سورج بالحزب الشيوعي الالماني (فرع هامبورغ) في نفس اليوم الذي حصل فيه على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٢٠.

ونظراً للنشاط الواسع الذي قام به سورج في خدمة فرع الحزب بهامبورغ (تلقين مبادىء الشيوعية للطلبة الذين قام بالتدريس لهم ولعمال المنجم الذي عمل فيه الكثيرون غيرهم ـ واشتراكه في اضطرابات كيل التي أدت الى تمرد الاسطول الالماني. . .) وتفانيه في تحقيق الأهداف الأخرى للشيوعية. بالإضافة الى تمتعه بذكاء خارق وبديهة حاضرة وإرادة قوية، أدرك المسؤولون عن المخابرات السوفياتية بالاشتراك مع زعماء الحزب الشيوعي الالماني أن سورج يعتبر هدفاً صالحاً للتجنيد، وبعد مزيد من التحريات التي أكدت هذا الاتجاه تم عرض فكرة التعاون عليه.

قوبل هذا التجنيد من جانب سورج بارتياح، لإتاحته فرصاً واسعة أمامه لخدمة المبادىء التي آمن بها فضلاً عن كونه ميداناً جديداً لا يخلو من الإثارة المحببة الى نفسه. وقد اجتاز بنجاح جميع المراحل المتعددة للتدريب والتي استغرقت خمس سنوات وأجاد خلالها جميع الوسائل الفنية المتعلقة بالمهنة، وثلاث لغات أجنبية هي الروسية والانجليزية والفرنسية، بالإضافة الى لغته الأصلية ثم تعلم فيما بعد اللغتين الصينية واليابانية. كما قام بزيارة عدد كبير من الدول (الاتحاد السوفياتي ـ الولايات المتحدة ـ الدول الاسكندنافية ـ الدول البلقانية ـ بريطانيا ـ الصين ـ هونج كونغ ـ اليابان ـ الخ. .) مما كان له أثره في زيادة الخبرات التي اكتسبها وتوسيع آفاق تفكيره.

وعندما اختير لرئاسة الشبكة السوفياتية باليابان ـ بعد توليه عدة مهام مماثلة في دول كثيرة ـ كان قد اطلع بالفعل على عدد كبير من المؤلفات السياسية والاقتصادية التي جعلته باعتراف الجميع أحد الخبراء الذين يعتمد

عليهم في الشؤون الدولية والداخلية لعدد كبير من الدول. وقد حرص بعد توليه العمل باليابان على دراسة كل ما يتعلق بالسياسة الخارجية لها، وعلاقاتها الثقافية مع الدول الكبرى، فضلاً عن معرفة دخائل القوى الرئيسية التي تسيطر على سياستها الداخلية والعوامل التي تحركها والمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تسود المجتمع الياباني، الأمر الذي ساعده بعد ذلك كثيراً في إدارة الشبكة بكفاءة ودقة نادرتين، وجعله بحق من أفضل وأشهر رجال المخابرات على مر التاريخ.

ونظراً للأهمية الكبيرة التي علقها الاتحاد السوفياتي على النتائج التي يمكن أن تحصل عليها شبكة اليابان، اشترك مدير المكتب الرابع التابع لهيئة أركان حرب الجيش السوفياتي بنفسه مع سورج في اعداد الخطط الرئيسية لها وطريقة تشغيلها وأسماء أعضائها والوسائل التي ستستخدمها في نقل المعلومات التي ستحصل عليها. وقد بدأت الشبكة نشاطها بالفعل في سنة ١٩٣٤. ويلاحظ أن معظم أعضائها الرئيسيين وهم سورج ـ اوزاكي ـ كلاوزن ـ فوكولويتش) كانوا يعملون من قبل في الشبكة السوفياتية بالصين، أي كانت لهم خبرة سابقة وطويلة بأعمال المخابرات، وبالظروف الدولية والداخلية لمنطقة جنوب شرقي آسيا، الأمر الذي أتاح لهم خلفية واسعة عن سياسة اليابان تجاه هذه المنطقة. وهو ما ساعدهم فيما بعد على إنجاز أعمالهم التي تعلقت في جزء كبير منها بالنوايا المعاصرة والمستقبلية لليابان.

وعندما كان من المعروف أن نجاح أي عمل في ميدان المخابرات لا يتحقق إلا باتخاذ الشخص الذي سيتولاه ساتراً أي غطاء يتلاءم مع طريقة العمل الذي يقوم به ويغطي حقيقة نشاطه ويعطيه في نفس الوقت حرية واسعة للحركة وإقامة الاتصالات الضرورية.. فقد نجح جميع الأعضاء الرئيسيين في الشبكة بدون استثناء في توفير الساتر المناسب واستغلاله لأقصى درجة ممكنة. ونظراً لأهمية هذا الجانب فإنه لابد من الإشارة الى طبيعة السواتر التي اتخذها الأعضاء الخمسة الرئيسيين بالشبكة (سورج ـ اوزاكي ـ

كلاوزن ـ فوكولويتش ـ مياجي) والدور الذي قام به كل منهم خلالها.

سورج:

حرص سورج قبل توليه رئاسة الشبكة على مراعاة هـذا العامـل، وأدرك بالاشتراك مع رؤسائـه السوفيـات أن الارتباط، الشكلي بـالنظام النـازي الذي يسود المانيا أمر ضـروري لتسهيل مهمتـه باليابان، خـاصة على ضـوء التقارب الكبيـر في العلاقـات بين الدولتين. كمـا أدرك أن العمل الصحفي هـو أفضل سـاتر يمكن اتخـاذه لتحقيق نفس الهدف، وتوقع أن تكـون اتصالاتـه بأعضـاء السفارة الالـمانية بطوكيو ذات فائدة غير محدودة لأعمالـه لأنها ستتيـح له قـدراً كبيـراً من المعلومات عن كـلا البلدين وإبعاد الشبهـات عن حقيقـة نشـاطـه، لذلك فقد بادر بـالسفر الى المـانيا ونجـح في تحقيق كل مـا دار في ذهنه من تخطيط حيث قام بما يلي:

أولاً: تمكن من الانضمـام للحزب النـازي بناء على تـوصيـة من بعض زملائه القدامى.

ثانياً: التحق بقسم الصحـافة التـابع للحـزب بتزكيـة من بعض الالـمان ذوي النفوذ.

ثالثاً: نجح في الظهور بين الأوساط النازية الرسمية، وأن يكـون معروفـاً لديها الى الحد الذي كان يدعى فيه الى الحفلات التي يحضـرها هتلر، وقـد كـان لـذلـك أثـره فيمـا بعـد من اعتقـاد أعضـاء السفـارة الالـمـانيـة بـطوكيـو والمسؤولين اليابانيين بأنه كان يتمتع بثقة وتأييد الحزب النازي.

رابعـاً: حصل على وظيفـة مراسـل لثـلاث صحف المـانيـة كبـرى في اليابان.

خـامساً: دعـا كل من وزيـر الـدعـايـة الالـمـاني (غـويلز) ورئيس قسم الشؤون الخارجية في رئاسة الحزب النازي (بوهل) للحفل الذي أقـامه نـادي

الصحافة الالماني له (سورج) قبل سفره الى طوكيو.

واستمر سورج بعد وصوله الى طوكيو في استغلال الساتر الجيد الذي ارتبط به، وقد ساعد على ذلك الصفات الشخصية الفريدة التي كان يتمتع بها، فأقام صلات عمل وصداقة مع معظم أعضاء السفارة الالمانية، وبصفة خاصة مع السفير والملحق العسكري بحيث أدت الى تعيينه رئيساً لإدارة الاستعلامات بالسفارة وبالتالي معرفة أدق أسرارها سواء عن طريق هذا المنصب أو بواسطة السفير الذي كان يتمتع بثقته الكاملة (كان يتناول معه يومياً طعام الافطار). وليس هناك أدل على براعة سورج في اخفاء حقيقة نشاطه من قول أحد الملحقين بالسفارة بطوكيو حينئذ بأنه كان يتمتع بكل مبررات الثقة فيه وأن جميع الموظفين ـ بما فيهم الملحق ـ كانوا يعتقدون أن حقيقة أمره تنطبق على ما كان يتظاهر به.

اوزاكي:

كان الساتر الذي اتخذه اوزاكي (وهو مواطن ياباني من أسرة نبيلة) خلال عمله لصالح الاتحاد السوفياتي في الصين هو نفسه الساتر الذي استخدمه في طوكيو وهو «العمل الصحفي». وقد جاء هذا الساتر استمراراً طبيعياً للمجالات التي يهتم بها، كما كان يتفق مع ثقافته الواسعة وخبرته التي يعتمد عليها في شؤون اليابان والصين ومعظم دول منطقة جنوب شرقي آسيا الأخرى، (وله خمس مؤلفات في العلاقات اليابانية الصينية).

والجدير بالذكر أن الدافع الذي جعله يعمل في خدمة موسكو، هو نفس الدافع الذي وقف وراء قبول سورج لنفس العمل، وهو الايمان بالمبادىء الشيوعية. وتقف الانجازات التي حققها اوزاكي خلال عمله بالشبكة على قمة الأعمال التي حققها جميع أعضائها. بما فيهم سورج نفسه.. إلا أن طبيعة الدور الذي قام به رئيس الشبكة من حيث قيامه بتجنيد اوزاكي وكثير من الأعضاء وتوجيه أعمالهم، والإشراف على وضع كل الخطط

الخاصة بتشغيلهم وتمويلهم وحمايتهم، فضلاً عن حصوله على معلومات قيمة من السفارة الالمانية وبعض المصادر الأخرى، هي التي ميزت أعماله وأعطته هذه الميزة التي فاقت كل ما عرف عن اوزاكي.

تولى اوزاكي مناصب رفيعة في الحكومة اليابانية مكنته من الحصول على معلومات على جانب كبير من الأهمية والخطورة، أفاد بها الشبكة إفادة لا تقدر بثمن. وأهم هذه المناصب التي تولاها ما يلي:

أولاً: سكرتير أول مجلس الوزراء الياباني (المستشار الإداري الخاص لرئيس الوزراء وهو أعلى منصب استشاري في اليابان).

ثانياً: مستشار اللجنة الوزارية التي تشرف على العلاقات الصينية اليابانية.

ثالثاً: رئيس إدارة مباحث سكك حديد منشوريا الجنوبية. وقد كان ذلك يخوله الاشراف على تقارير المخابرات الواردة من منشوريا، ومعرفة أي قرار ياباني محتمل لغزو سيبيريا.

رابعاً: هناك شيئان آخران لا يعتبران مناصب حكومية بالمعنى الشائع، ولكنهما حققا نفس التسهيلات التي أفادت الشبكة وهما اشتراكه بصفة دائمة فيما كان يعرف حينئذ بجماعة الافطار التي تتكون من رئيس الوزراء وكبار رجال الحكومة الذين يتشاورون في أدق الشؤون اليابانية، فضلاً عن عضويته في هيئة تحرير الجريدة اليابانية الواسعة الانتشار.

فوكولويتش:

اشترك فوكولويتش ـ وكان ضابطاً سابقاً في الجيش اليوغوسلافي ـ مع سورج وأوزاكي في اتخاذ العمل الصحفي ساتراً لهم. فقد كان مراسلاً لجريدة فرنسية وأخرى يوغوسلافية. ويتميز الدور الذي قام به في الشبكة بأهمية خاصة حيث تولى شؤون التصوير الفوتوغرافي بكل متعلقاته، فضلاً

عن حصوله على منصب مراسل وكالة الأنباء الفرنسية الرسمية «هافاس» في طوكيو، وهو مركز شبه دبلوماسي في السفارة الفرنسية، أتاح له القيام باتصالات واسعة بأعضاء السفارات الفرنسية والبريطانية والاميركية لمعرفة آراء بلادهم تجاه الأحداث السياسية والعسكرية المعاصرة.

وقد ازدادت قيمة هذه الاتصالات بازدياد الثقة التي حظي بها فوكولويتش لديهم، والتي نبعت من اعتقادهم بأن له نفوذاً واسعاً بين الأوساط المختلفة، يمكنه من الإدلاء بالآراء والتوقعات التي أثبتت الوقائع اللاحقة لها صدقها. والواقع أن هذه الثقة كانت نتيجة لمجهودات الأعضاء الآخرين الذين أمدوه عن عمد ببعض المعلومات الصحيحة التي حصلوا عليها من ملفات الوزارات اليابانية لتدعيم مركزه بينهم وتمكينه بالتالي من الحصول على معلومات ذات قيمة في مقابل تلك التي يدلي بها، عملاً بالمثل القائل بأن «العميل الناجح هو الذي يكون نفسه مصدراً للمعلومات».

كلاوزن:

اختلف الساتر الذي اتخذه كلاوزن لإخفاء حقيقة نشاطه عن مثيله لدى جميع الأعضاء الآخرين. فقد حبذ رؤساؤه أن يعمل في ميدان الأعمال الحرة، تمهيداً لقيامه بدور أساسي في الشبكة وهو الاتصال اللاسلكي بالأجهزة المركزية في الاتحاد السوفياتي. وقد تم اختياره لهذه المهمة من بين كثيرين غيره نظراً لأنه كان بالفعل أكفأ عامل لاسلكي لدى المخابرات السوفياتية. وكان سورج وراء الإصرار على اختياره رغم زواجه من احدى الروسيات البيض المعاديات للنظام الشيوعي.

نجح كلاوزن في تقديم خدمات طيبة في كلا العملين اللذين تولاهما. فبالإضافة الى نشاطه وابتكاراته في ميدان الأجهزة اللاسلكية، والتي سهلت وسائل نقل المعلومات التي تم الحصول عليها وإدماجه حسابات الشبكة ضمن ميزانيات أعماله التجارية، قام بالاشتراك مع باقي أعضاء الشبكة بإنشاء

شـركة مـزودة بمطابـع وآلات المـانيـة استـطاعت الحصـول على حق كتـابـة مطبوعـات الحكومـة اليابـانية وطبـع خرائـطها البحـرية وكثيراً من التصميمات السرية الأخرى.

مياجي:

أما «مياجي» فقد كان فنـانـاً يـابانيـاً هاجـر الى الولايـات المتحدة حيث فوجىء هناك بالفوارق الشاسعة في مستويات المعيشة بين الطبقات المختلفة، الأمر الذي اجتذب فكره نحو المبادىء الشيـوعية وجعله يتحمس لهـا، وأسفر ذلك في النهاية عن التحاقه بالحزب الشيوعي الاميركي. وأدركت المخابـرات السوفياتية نتيجة للنشاط الذي مارسه في صالح موسكو ولجنسيتـه اليابـانية أنـه يصلح بدرجة كبيرة لخدمة أهدافها في اليابان، حيث كان ينـدر توفـر نظيـر له بين فئات الشعب هناك.

استمر مياجي في عمله القديم لأنه أتاح له إقامة اتصالات واسعة بعـدد كبير من اليابانيين ذوي النفوذ، بمـا في ذلك كبـار ضباط القـوات المسلحة اذ حازت لوحاته شهرة كبيرة نظراً لدقتها وارتفاع مستواها، وهو ما كان له أثر كبير في خـدمة أغـراض الشبكة سـواء بالحصـول على معلومات جـديدة أو تـأكيد معلومات أخرى أو استكمـال النقص عن ثالثـة. ويظهـر بوضـوح مما سبق أن السواتر التي اتخذها أعضاء الشبكة الـرئيسيون كـانت جيدة وإن كـان قد بقي شيء آخر يعادل ذلك في الأهمية ويرتبط في نفس الوقت بهذه السواتـر، وهو تبـرير المقـابلات الـدائمة التي كـانت تتم بينهم لعدم اجتـذاب أنظار أجهـزة مقاومة الجاسوسية، أو شكوك أعضـاء السفارات الغـربية. وقـد نجحوا في أن يجعلوا هذه المقابلات تتخذ طابعاً عادياً وذلك على الوجه التالي:

- اجتماع الصحفيين الثلاثة (سورج وأوزاكي وفوكولـويتش) في الأماكن التي يـرتـادهـا عـادة الصحفيـون والفنـانـون، وإيهـام الآخـرين أن صـداقتهم ومقابلاتهـم المستمرة جاءت نتيجة لاشتراكهم معاً في امتهان العمل الصحفي.

ـ تدبير اجتماعات بين الصحفيين الثلاثة وبين كل من مياجي وكلاوزن في بعض المتاحف اليابانية والحفلات الرسمية للسفارة الالمانية بحيث تبدو انها نتيجة للمصادفة البحتة التي تطورت بعد ذلك الى صداقة وطيدة، خاصة وأن كلاوزن كان يتردد دائماً على السفارة الالمانية بحكم جنسيته ومهنته، كما كان مياجي يجيد الفن الياباني الذي يقدره باقي أعضاء الشبكة.

ـ اقامة حفلات ساهرة في منزل سورج بعد اجتياز المراحل التمهيدية لذلك والتي كانت تتم فيها دراسة كل ما يتعلق بالشبكة وإدارة شؤونها.

وانطلاقاً من هذه السواتر كانت قائمة الاحتياجات التي كلفت الشبكة السوفياتية في اليابان بتحقيقها، والتي تمثلت بما يلي:

أولاً: معرفة ما اذا كانت نوايا اليابان تتجه نحو غزو الأراضي السوفياتية الآسيوية والنوايا الحالية والمستقبلية للحكومة اليابانية تجاه مصالح الاتحاد السوفياتي الأخرى.

ثانياً: الحصول على أية معلومات تتعلق بالقوات المسلحة اليابانية البرية أو البحرية أو الجوية سواء من حيث التسليح أو التعداد أو المواقع أو الإمدادات والتموين فضلاً عن مدى تأثيرها على سياسة الدولة الداخلية والخارجية.

ثالثاً: معرفة الصناعات الثقيلة في القطاعات المختلفة، ومنتجاتها ومواصفاتها الفنية واحصائيات انتاجها وتطورها وعلاقاتها بالصناعات الحربية.

رابعاً: موقف اليابان من الصين ومنشوريا والتحركات المختلفة لقواتها هناك.

خامساً: العلاقات الالمانية اليابانية وأوجه التقارب بين الدولتين.

سادساً: تطور العلاقات بين اليابان وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وهكذا اكتسبت هذه الشبكة أهميتها من كبر حجم الانجازات التي

حققتها والتي فاقت جميع أعمال أجهزة المخابرات الأخرى خلال الحرب العالمية الثانية. وقد تميزت هذه الانجازات بارتفاع مستواها لدرجة غير عادية، وتعددها وشمولها لعدد كبير من الموضوعات الهامة. وفيما يلي أهم هذه الانجازات:

- حصول اوزاكي على البرنامج الذي أقرته الوزارة اليابانية والذي يوضح بالتفصيل الخطوط الرئيسية لسياسة اليابان في المجالات السياسية والاقتصادية خلال سنة لاحقة. وقد تأكد سورج من صحته بالاتصال بالسفير الالماني في طوكيو. وقد أوضحت هذه الوثيقة أن النوايا التوسعية لليابان لا تتجه نحو الاتحاد السوفياتي خلال عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦ بل تجاه غزو الأراضي الصينية، كما أشارت الى بعض الحقائق المتعلقة بعلاقة اليابان بألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة وفرنسا. وقد أسفرت المعلومات التي احتواها هذا البرنامج عن:

١ - تغيير بعض الخطط العسكرية السوفياتية في سيبيريا وتدعيم الخطط الدفاعية في الغرب.

٢ - تغطية جانب هام من العلاقات بين الدول الكبرى التي يهتم بها الاتحاد السوفياتي، واستخدام سورج وفوكولويتش لهذه المعلومات في توثيق صلاتهما مع السفارات الغربية على أساس انهما وثيقو الصلة بالمصادر الموثوق بها.

٣ - ابلاغ موسكو بتاريخ استيلاء الجيش الياباني على السلطة في فبراير ١٩٣٦، أي قبل حدوثه بنحو شهر حيث كانت العاصمة الوحيدة التي لم تفاجأ بذلك وإبلاغها في نفس الوقت بتوقيت الغزو الياباني للصين.

٤ - الحصول على تفاصيل المحادثات بين المانيا واليابان حول عقد اتفاقية عسكرية بينهما، ورغبة الأولى في عقد تحالف مع طوكيو ضد الاتحاد السوفياتي ثم الحصول بعد ذلك على النصوص الكاملة لهذه الاتفاقية بعد ٤٨ ساعة فقط من التوقيع عليها، وقبل تقديمها للوزارة اليابانية وللقيادة العليا

الالمانية. ويلاحظ في هذا الشأن أن كل من سورج وأوزاكي ومياجي قد تعاونوا في الحصول على هذه المعلومات: الأول عن طريق السفير الالماني والملحق العسكري، والثاني بواسطة رئيس الوزراء، والأخير باتصال بكولونيل في الجيش الياباني.

٥ ـ تزويد موسكو بتقارير عن الفرق اليابانية التي أعيد تنظيمها في الصين ومنشوريا واليابان وعن برنامج إعادة تكوين الاسطول الياباني والتركيبات الجديدة بالسفن الحربية.

٦ ـ التعرف على التصميمات الحديثة للدبابات، وتشكيلات الطائرات الجديدة في الأسراب التي كونت حديثاً ومدى قوتها.

٧ ـ تزويد موسكو عن طريق الشركة التي كونها كلاوزن بالاشتراك مع باقي أعضاء الشبكة بمطبوعات وكتالوجات الحكومة اليابانية الخاصة بالآلات الصناعية والأسلحة الجديدة وجداول الآلات اللازمة للطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل وخرائط البحرية.

٨ ـ تحذير الاتحاد السوفياتي من الهجوم الالماني على أراضيه في /يونيو ١٩٤١. ويلاحظ أن التوقيت الذي قدرته الشبكة يقل بيومين فقط عن التاريخ الحقيقي للغزو.

٩ ـ المساهمة في الحيلولة دون هزيمة الاتحاد السوفياتي أمام المانيا بعد تزويد موسكو في الوقت المناسب بمعلومات هامة عن التحركات الالمانية وكذلك قرار الحكومة اليابانية بالتوسع نحو الجنوب وصرف النظر نهائياً عن مهاجمة الاتحاد السوفياتي نتيجة للضغط الذي مارسه قواد الجيش والبحرية عليها.

وبالرغم من هذه الانجازات والنجاحات التي أحرزتها الشبكة السوفياتية في اليابان، فقد تمكن جهاز «الكمبتاي» (الجهاز الرئيسي لمقاومة الجاسوسية باليابان) من القبض على أعضاء الشبكة بمعظمهم بعد أن شعرت اليابان

بتسـرب المعلومـات السـريـة جـداً الى الخـارج، وبـالتحـديــد الى الاتحـاد السـوفياتي. وبعـد المراقبـة الدقيقـة والدائمـة وقع عنـاصر الشبكـة في قبضة «الكمبتاي» حين أعدم معظمهم بعد أن كان الاتحاد السوفياتي قد نخر النخاع الياباني نخراً، وفات الأوان، ولم يعد للندم جدوى.

المراجع

١ ـ د. حمدي مصطفى. «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. ص ١٩ ـ ٣٤.

٢ ـ حافظ ابراهيم خيرالله. «الاستخبارات السوفياتية». بيروت ١٩٧١. ص ١٨.

٣ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم» ص ٨٢ ـ ١٠٤.

٤ ـ كيرت سينجر «أعلام الجاسوسية العالمية» ترجمة بسام العسلي. ص ١٩٥ ـ ٢١٦.

٥ ـ أحمد هاني «الجاسوسية بين الوقاية والعلاج». ص ٥٠.

٦ ـ كبار جواسيس الحرب العالمية الثانية. بإشراف ألبير دي مازيير. بالتعاون مع جان مارسيياك ولويس غارّوس. منشورات ريب (RYB). جنيف ١٩٧٨ (باللغة الفرنسية).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع فرنسا

احتلت فرنسا مكانة هامة عبر تاريخها الطويل حتى الحرب العالمية الثانية التي انتقلت فيها زعامة العالم الى الجبارين المتمثلين بكل من الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي . . . إلا أن الامبراطورية الفرنسية كانت الحقل الجيّد والواسع لكي يمارس فيه الاتحاد السوفياتي جاسوسيته المتفوقة والمتطورة، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، حتى أصبحت تحتل المرتبة الأولى في اهتمام المخابرات السوفياتية على أساس مناهضتها المبكرة للنظام الروسي الجديد بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ ، وكذلك تمتعها بمكانة دولية كبيرة في فترة ما بين الحربين، الأمر الذي دفع موسكو الى تركيز نشاط أجهزة مخابراتها فيها معتمدة في ذلك بصفة أساسية على الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يتمتع بنفوذ واسع في الداخل، وعلى العملاء الآخرين الذين استغلت الوسائل المعروفة في تجنيدهم. ورغم تحول الاهتمام الأساسي للأجهزة السوفياتية من فرنسا الى المانيا بعد تولّي الحزب النازي للحكم عام ١٩٣٣ ، فقد استمرت الأجهزة السوفياتية في اهتمامها بالساحة الفرنسية والإبقاء على نشاط عملائها فيها. وهنا لا بد من الإشارة الى الدور الذي لعبه رئيس هذه الشبكة الجاسوسية التي عرفت «بالأوركسترا الحمراء» وهو «ليوبولد تريبار» الذي يعتبر دماغ هذه الشبكة ومحركها دون انكار الدور الهام لبقية أعضائها الآخرين.

فما هو سر هذه الشبكة؟ ومن هم قادتها؟ .

كان «ليوبولد تريبار» يهودياً من بولندا، ويمتد تاريخ انضمامه

للمخابرات السوفياتية الى ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بوقت طويل، وقد استطاع بفضل ذكائه وحسن تصرفه وقدرته على مواجهة الظروف الطارئة. وفضلاً عن ولائه للشيوعية فقد كسب ثقة المسؤولين في الحكومة والحزب والمخابرات السوفياتية الى الحد الذي دفعهم الى تعيينه مديراً مقيماً لكافة الشبكات الاستخبارية السوفياتية في دول غرب أوروبا.

وتعتبر سياسة الحكم النازي المعادية لليهود علناً أحد الدوافع التي حركت جهود تريبار للعمل ضد المانيا حيث وقفت على قدم المساواة مع الدوافع الأخرى إن لم تكن تفوقها بعد أن ضاعف نشاطه للحصول على المعلومات التي تكفل في النهاية هزيمة المانيا والقضاء على النظام النازي فيها، كما سعى أيضاً الى تجنيد كثير من اليهود من جنسيات مختلفة وضمهم للشبكة للعمل على تحقيق نفس الهدف. وقد تميزت بعض أعمال تريبار بالجرأة والابتكار. ومن أبرز الأمثلة على ذلك قيامه باستغلال صلاته بقنصل المجر في بلجيكا (وكانت العلاقات بين المانيا والمجر طيبة) في اصطحابه خلال قيامه بتفقد أحوال رعايا بلاده في فرنسا بعد اقناعه بأن متابعة فروع شركة الملابس الواقية من المطر هناك يقتضي ذلك، وقد تم بالفعل تنظيم رحلة مشتركة الى المناطق التي تدور فيها المعارك بين القوات الالمانية والفرنسية. وخلال هذه الرحلة قام تريبار بتعطيل السيارة المدنية التي كان يستقلها مع مرافقيه وانتقل الى سيارة المانية قامت بالانتقال عبر الخطوط الالمانية ومراكز الحشود الخاصة بها. وقد تمكن تريبار خلال هذه الجولة من كتابة تقرير مطول عن استراتيجية هتلر في الحرب الخاطفة وعن طرق تعزيز القادة الالمان لقواتهم وكيفية إدارتهم للمعركة والدور الذي كانت تقوم به قوات العاصفة للقضاء على الدفاع المضاد للمدرعات المعادية.

اتخذ المدير المقيم للشبكة «تريبار» من فرنسا مقراً رئيسياً لها نظراً لأهميتها وموقعها الجغرافي في وسط دول غرب أوروبا (التي تعتبر المجال الأساسي لتحرك الشبكة). وقد اعتمد في تنظيمها على كثير من العملاء الذين

كانوا مجندين بالفعل لصالح الاتحاد السوفياتي وينتمون الى الشبكات المختلفة التي كانت تمارس نشاطها في ذلك الوقت، فضلاً عن العملاء الذين قام بتجنيدهم بالتعاون مع الأعضاء الرئيسيين للشبكة.

أما فيما يتعلق بالسواتر التي اتخذها أعضاء فرع الشبكة في فرنسا لتغطية حقيقة نشاطهم والعمل من خلالها على تحقيق الأهداف المحددة، فقد انحصرت بصفة أساسية في النشاط التجاري والعمل الصحفي. وكان الساتر الأخير يستخدم بكثرة في فترة ما قبل الحربين العالميتين نظراً لما يتيحه من مرونة وتغطية مناسبة لمن يمارسه. وقد قامت المخابرات السوفياتية بالفعل بإيفاد عدد كبير من العملاء الى فرنسا ليعملوا كمراسلين صحفيين، كما قامت أيضاً بتجنيد عدد من الروس البيض الذين هاجروا اليها للعمل في نفس الميدان مستغلة استمرار ارتباطهم بالوطن الأم وعطف بعضهم على النظام الشيوعي الجديد (خاصة بالنسبة للجيل الثاني من المهاجرين).

استمر بعض العملاء في استخدام السواتر المختلفة بما فيها العمل الصحفي بعد أن تولى تريبار الإشراف على نشاطهم. إلا أنه لجأ الى التوسع في استخدام النشاط التجاري كساتر رئيسي نظراً لما يتيحه من إشراك أكبر عدد ممكن من العملاء فيه فضلاً عن كفالة حرية الحركة والانتقال الى المدن والدول المختلفة لمباشرة الإشراف على فروع الشبكة (الشركات) فيها وتنفيذ أهدافها الكثيرة، وقام تريبار لذلك بالتعاون مع زملائه بتأسيس «شركة سيمكس» للإستيراد والتصدير والتي اتخذت مقراً لها في شارع الشانزيلزيه، كما قام بفتح عدة فروع لها في مرسيليا وعدة مدن أخرى.

قامت هذه الشركة بالتعامل مع السلطات الالمانية في فرنسا بتنفيذ بعض الأعمال الخاصة بالقوات الالمانية. كما تمكن تريبار وبعض العملاء الآخرين من الحصول عن طريقها على تصريحات رسمية لدخول المناطق الالمانية المحرّمة والتي تشمل تحصينات ومبانٍ سرية، الأمر الذي أتاح لفرع الشبكة في فرنسا الحصول على معلومات هامة عن تحركات ومواقع القوات

الالمانية في الأراضي الفرنسية وخططها التكتيكية والاستراتيجية فضلاً عن بعض الانجازات الأخرى. وكان من بين مجموعات العملاء السوفيات التي انتظمت تحت إشراف تريبار بعد توليه لمنصبه الجديد، مجموعة «هنري روبنسون» الذي كان، مؤسساً لجمعيات الشباب الشيوعي في فرنسا ورئيساً للقسم السري في الكومنترن. وكذلك «فاسيلي وآنا ماكسيموفيتش» وهما شقيقان أرستقراطيان من الروس البيض اللذان هاجرا الى فرنسا مع والدهما حيث اعتنقا الشيوعية وعملا لصالح المخابرات السوفياتية. وقد قامت هذه المجموعة بوضع عملائها من السياسيين وموظفي الحكومة والعمال الفرنسيين والالمان في خدمة تريبار الذي تمكن مع هذه المجموعة وباقي أعضاء الشبكة من إمداد موسكو بمعلومات هامة عن المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وذلك على النحو التالي:

ـ اشتغال فاسيلي ماكسيموفيتش كمترجم لأحد القادة الالمان المتواجدين في فرنسا وقيامه بنقل كل ما يراه أو يسمعه أو يصوره الى تريبار.

ـ عقد فاسيلي ماكسيموفيتش خطوبته على احدى الالمانيات العاملات بمقر القيادة العليا الالمانية في باريس وحصوله منها على جميع الوثائق السرية الخاصة بالقوات الفرنسية والالمانية في فرنسا وسياسة الحكومة الفرنسية في الداخل والخارج واتجاهات الرأي العام الفرنسي.

ـ افتتاح آنا ماكسيموفيتش التي كانت تعمل كطبيبة للأمراض النفسية لإحدى العيادات في المنطقة التي تقع بين الأراضي الفرنسية المحتلة وغير المحتلة، وقد اتخذت هذه العيادة مقراً لاجتماع العملاء وتزويد من ليس لديه بطاقات تموينية بالمواد الغذائية. وقد تمكنت الشبكة بهذه الوسيلة من الحصول على معلومات هامة عن القوات الالمانية في فرنسا وغيرها، وكان من بين مصادرها بعض الضباط الالمان الذين كانوا يترددون على هذه العيادة وإحدى الطبيبات التي تعمل فيها «كان أخوها يشغل منصب مدير شؤون اليهود في فرنسا».

ـ تعيين احدى الالمانيات وهي «كات فولكيز» (التي كانت تعمل بالرقص وقامت بزيارة موسكو بعد إفلاسها حيث جندت في المخابرات السوفياتية وتم تدريبها وإرسالها الى فرنسا) في منصب سكرتيرة لأحد المسؤولين الالمان واستطاعت عن هذا الطريق تزويد الشبكة بمعلومات هامة عن القطاع الذي كانت تعمل فيه وعن اتصالات ومحادثات رؤسائها وزملائها.

ـ تغلغل الشبكة في بعض الأوساط الالمانية والفرنسية الهامة وتمكينها من تعيين وتجنيد بعض الموظفين والفنيين في تلك الأوساط ومن بينهم:

١ ـ عميلان في السنترال الالماني بباريس وقد أمدا الشبكة بكثير من نصوص المحادثات التي أجريت بين برلين وباريس.

٢ ـ أحد المهندسين العسكريين الالمان وكان معادياً للنظام النازي وقد أمد تريبار بمعلومات هامة عن الهجوم الالماني على الأراضي السوفياتية.

٣ ـ اثنان من المترجمين كانا يعملان في هيئة موظفي القيادة الالمانية في باريس وقد قاما بتحقيق مكاسب كبيرة للشبكة خاصة فيما يتعلق بالأنباء المتصلة بتسليح القوات الالمانية وتحركاتها ومواقعها.

أما فيما يتعلق بالوسائل التي كان يتم عن طريقها نقل المعلومات الى موسكو فقد انحصرت في عدة طرق رئيسية أهمها:

ـ استخدام أجهزة اللاسلكي الخاصة بالشبكة في فرنسا أو بلجيكا كوسيلة أساسية.

ـ إرسال المعلومات عن طريق أجهزة الحزب الشيوعي الفرنسي أو السفارة السوفياتية في باريس ولم يكن يتم ذلك إلا في حالات الضرورة القصوى (كما هو الحال في استخدام تريبار جهاز اللاسلكي الخاص بالملحق العسكري السوفياتي في باريس في إرسال المعلومات العاجلة المتعلقة بتاريخ غزو القوات الالمانية).

- حاملي الرسائل Courriers وكان هناك أحد الأفراد المختصين بنقل هذه المعلومات داخل وخارج فرنسا. إلا أن هذه الطريقة كانت تستخدم قليلاً نظراً لعدم وجود تأمين كافي لها.

إلا أن الأهمية الكبرى التي تعادل في قيمتها تلك التي تميزت بها شبكة تريبار، فإنها تتمثل بما أحرزه أيضاً واحد من أهم الجواسيس الروس المقيمين في فرنسا، والمسجل في ملفات الجاسوسية الروسية تحت اسم «غامبان».

فلما سارت فرنسا في طريق الأبحاث الحديثة وأصبحت تساهم مساهمة مهمة في حقل الطيران النفاث والصواريخ الموجهة والأبحاث الذرية، قررت المخابرات العسكرية في موسكو أن توسع دائرة جاسوسيتها في فرنسا، وكان «غامبان» الذي جاء الى باريس عام ١٩٥٦ قادماً من مراكش، من أبرز الذين خدموا السوفيات في هذا المجال. لم يكن «غامبان» من مواليد فرنسا، بل كان روسياً، ولد عام ١٩٢٣ في «تيبليسي» عاصمة جمهورية جورجيا السوفياتية، من أب أوكراني وأم من جورجيا. وكان اسمه الحقيقي «فلاديمير اغناتوفتش بودارنكو»، ويعود مظهره الفرنسي الى كون والدته من جورجيا. وهذا أحد الأسباب التي دعت قسم التجنيد في القيادة العامة للمخابرات في موسكو الى اختياره للعمل في فرنسا.

دخل بودارنكو معهد ستيبنايا للجاسوسية الخاص بالدول اللاتينية عام ١٩٤٦. ومنذ ذلك الحين أصبح يعرف باسم «غامبان» وكان رقم تسجيله ف - ٤٦١٧٠٧ / ٢٠٠٠٤٢ - . . . وعندما أصبح «غامبان» مهيئاً للعمل في فرنسا عام ١٩٥٦، أرسل الى مارسيليا على ظهر باخرة شحن سوفياتية ونزل في فندق صغير هناك. بعد أسبوع، ذهب غامبان الى تولوز، حيث ادعى أنه ولد فيها عام ١٩٢٢.

كانت أوراق الهوية التي حملها غامبان هي لعامل سلافي وجد قتيلاً في معمل قصفته القنابل قرب بريسلو خلال الزحف الروسي الى المانيا. وقد أخذ

المرشد السياسي هذه الأدوات وأرسلها الى موسكو حيث أجرت القيادة العامة للمخابرات سلسلة من التحريات لمعرفة ما اذا كانت أوراق هوية الرجل الميت صالحة للإستعمال في المستقبل، وقد توصلت الى نتائج ايجابية بهذا الصدد.

كانت الأوامر مع غامبان تقول أن عليه أن يذهب الى مراكش الفرنسية، ويعود الى فرنسا فيما بعد. وكان كل شيء معداً لهذه الرحلة حيث زودته المخابرات الروسية برسائل حقيقية من الرجل الذي سيعمل غامبان عنده في مراكش. لم تطل إقامة غامبان في مراكش، فعاد بعد عشرين يوماً الى فرنسا. وفي أيلول ١٩٥٦ بدأ في تنظيم حلقة للجاسوسية في باريس. بحث عن محترف ملائم لأنه قرر أن يعمل متخفياً كفنان ومصور. وقرر كذلك أن يستأجر شقة في منطقة راقية من باريس وينشيء فيها وكراً للدعارة السرية. وقد جهز غامبان الشقة بأجهزة للصوت متصلة بمسجلات مخفية، ودرب، المومسات على كيفية تشغيل الآلات السرية اللاقطة للصوت، ووعدهن بأجور مرتفعة للتسجيلات مهما كانت قيمتها. وقال لهن أن هذه التسجيلات سوف تباع الى مؤسسات صناعية كبيرة يهمها معرفة الأسرار الصناعية عن المؤسسات المنافسة لها. وقد نظم غامبان جهازاً من القوادين مهمتهم استجلاب التقنيين والصناعيين والمهندسين الى وكر الدعارة.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦، أرسل غامبان تقريراً الى موسكو يقول فيه أنه قد وجد محترفاً ملائما ليجعله مقراً عاماً لعملياته، وبعد مدة وجيزة كتب الى رؤسائه يقول: «. . . ليس من الضروري في معظم الحالات أن أستعمل الوسائل «العنيفة» لاستجلاب المساعدين هنا. إن عدداً كبيراً من المهندسين والكتبة السريين في مؤسسات الأبحاث، والعلماء والتقنيين والمدراء والضباط وجنود الجيش والبحرية والطيَران في فرنسا يكنون عطفاً كبيراً في قلوبهم على الاتحاد السوفياتي. وقد وافق العديد منهم على العمل لصالحنا. إنه من الأسهل التعاون مع الرجال أكثر مما هو مع النساء. . .».

هـذا وتشير السجـلات الاستعلاميـة في موسكـو أن غامبـان هـو «أذكى العملاء وأكثرهم نشاطاً وأنه زود المخابرات الروسية بالمعلومـات أكثر من أي جاسوس آخر في فرنسا في ذلك الحين».

وفي الوقت الذي أرسل فيه غـامبان الى فـرنسا، كـانت التعليمات التي يحملهـا تطلب منـه التركيـز على التجسس الصناعي، لكنـه نشط في الحقـل العسكـري عنـدمـا عثـر على مخبـرين في القـوات المسلحـة الفـرنسيـة. . . والمؤسسـات الأخـرى التـابعـة لهـا والمتخصصـة بـاختـراع وإنتـاج الأسلحـة العسكرية السرية.

وكان أسلوب غامبان لضرب المواعيد مـع عملائـه بسيطاً للغـاية. فقـد كـان يضع إعـلاناً في الـزاوية الشخصيـة في جـريـدة بـاريسيـة، حيث يقـول الإعلان مثلاً: «رسام شاب بحـاجة الى مـوديل»، ويلي ذلـك عنوان محتـرف غامبان. عند قراءة هذا النص، يعرف عميل معين أن عليه مقـابلة الجاسـوس الماهر في الساعة الـواحدة من اليـوم التالي في كـاتدرائيـة نوتـردام. واذا كان الإعلان يقول: «مصور شاب بحاجة الى موديل»، فهـذا يعني أن الموعـد هو في الساعة الثـالثة والـربع بعـد الظهـر في نوتـردام، لأن كلمة «مصـور» كانت الكلمـة المتفق عليها لتحـديد الـوقت. أما اذا ظهـر إعلان غـامبان في زاويـة «الأغراض المعروضة للبيع»، يكون عميل آخر هو المعني بالأمر فيعلم بـذلك المكان والزمان الذي عليه أن يقابل رئيسه فيه.

كل عميل يعلم في أية زاوية وفي أيـة جريـدة عليه أن يفتش ليعـرف ما اذا كان مطلوباً أم لا. وكان غامبان يؤكد في تقاريره العديدة الى القيادة العامة في موسكو «أن أسلوب الاتصال بواسطة الإعلان في الجـرائد يثبت بـاستمرار أنه أفضل أساليب الاتصال».

ولكن رغم حذر غامبان، اضطر الى أن يوقـف نشاطه كجاسـوس روسي في فرنسا عندما تورط صدفة في حادث سرقة كان بريئاً منه. ولم تكن مـوسكو مستعدة أن تجازف به، فأرسلت تستدعيه الى وطنه.

ومن المؤكد أن غامبان لم يكن وحيداً هناك، ولم يكن أول الجواسيس السوفيات ولن يكون آخرهم، بل إن الساحة الفرنسية خصبة جداً لأن تعج بأمثال هذا الجاسوس الماهر الفذ الذي أثبت جدارته وكفاءته المخابراتية على أكثر من صعيد متجاوزاً تعليمات قادته في موسكو الى ما هو أهم وأكثر فائدة.

ومع كل تسرب خبر الى المخابرات السوفياتية، كانت فرنسا تشعر بأن تياراً كهربائياً يسري في أعصابها وشرايينها وحتى في نخاعها الشوكي، فتصاب عندها بغيبوبة، سرعان ما تستفيق منها على هدهدات الأشباح والعمالقة، لتجد نفسها أمام «مخابرات الكرملين» التي تحصي عليها الأنفاس وتمنعها من ممارسة عملية التنفس الطبيعي، حتى في عقر دارها، مجيرة كل هذه العمليات التجسسية لمصلحة الشعوب الطامحة للحرية والاستقلال. والشعوب المناضلة هي المنتصرة في النهاية رغم كل جبروت القوى الاستعمارية وادعاءاتها التفوقية.

المراجع

١ ـ د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. ص ٣٥ ـ ٤٢.

٢ ـ ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. بيروت ١٩٦٣. ص ١٨٣ ـ ١٨٧.

٣ ـ «كبار جواسيس الحرب العالمية الثانية» بإشراف ألبير دي مازيير بالتعاون مع جان مارسيياك ولويس غارّوس. جنيف ١٩٧٨. ص ١١ ـ ١٠٧. (باللغة الفرنسية).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع المانيا

لقد احترف الاتحاد السوفياتي أسلوب التغلغل في نخاع الدول الغربية أو ما يسمى بدول العالم الحر، كما في شرايينها وأعصابها، في الوقت الذي تجد نفسها فيه عاجزة عن المقاومة.

وعندما كان بعض الدول يدخل عالم العصرنة عن طريق تدريب مهندسين وإقامة مراكز أبحاث لتطوير التكنولوجيا، كان البعض الآخر يجد أن الطريق الأسهل للحصول على تقنيات العصرنة والتطور هو تدريب الجواسيس. وقد تبين أكثر من مرة أن الاتحاد السوفياتي يركز كثيراً على الأسلوب الثاني، بحيث قدم من المانيا الغربية في أواخر شهر سبتمبر ١٩٨٤، مثالاً جديدا على براعة السوفيات في التجسس الصناعي، أثار فضيحة أقامت المانيا ولم تقعدها، عبر أحد عملائهم والمدعو «مانفرد روتش».

و«مانفرد روتش» هو مواطن الماني شرقي عادي لجأ في عام ١٩٥٤ كغيره من مواطنيه الى المانيا الغربية يوم كان التهافت كبيراً قبل بناء جدار برلين في ١٩٦١. وهناك وجد «روتش» عملاً في شركة «جنكرز» للهندسة استمر عشر سنوات. وفي سنة ١٩٦٤ انتقل «روتش» الى شركة «مسز شميت» أكبر شركات صناعة الطيران في المانيا الغربية. ورويداً رويداً بدأ رصيد المهندس النشيط يرتفع حتى وصل به الى مركزَ مدير قسم التخطيط والإنماء. هناك، استمر «روتش» يعمل بإخلاص ويحوز على ثقة المسؤولين وهو فوق كل الشبهات. ودون أن يعلم أحد أن الرجل يمارس عملاً إضافياً لصالح

المخابرات السوفياتية التي اتصلت به منذ العام ١٩٦٧. ومن ١٩٦٧ الى ١٩٨٤ استمر روتش في خدمة صاحبة الجلالة الـ «ك. ج. ب»، ولم يشكك مكتب مكافحة التجسس في بون في رحلات روتش الى النمسا ونزهاته الكثيرة وحيداً في الحدائق العامة إلا في أواخر أيلول/سبتمبر ١٩٨٤.

وكانت الفضيحة... وخلال ١٧ سنة كان روتش ينقل بإخلاص كل المعلومات التقنية والخرائط العسكرية الهامة والصور العلمية الى موسكو في شكل ليس له مثيل في المانيا الغربية.

ماذا نقل روتش بالفعل الى السوفيات؟.

على الرغم من الكتمان الشديد الذي تلتزمه السلطات الالمانية حول نشاطات الجاسوس، السوفياتي، من المؤكد أن روتش قد حقق انجازات ضخمة للـ «ك. ج. ب» يمكن أن تدخله تاريخ التجسس الصناعي بين الشرق والغرب.

ولمعرفة حجم المعلومات والملفات التي انتقلت الى الاتحاد السوفياتي، يكفي إلقاء نظرة سريعة على نشاطات شركة «مسز شميت». هذه الشركة تعتبر أكبر مؤسسة لصناعة الطيران في المانيا ويعمل فيها نحو ٣٧ ألف شخص وقد بلغ حجم عملياتها في العام ١٩٨٣ حوالي ٥,٩ مليار مارك. والخطير هو أن أكبر اهتمامات مسز شميت هي في حقل الطيران الحربي، اذ أنها تساهم في معظم الأسلحة المشتركة الصنع مع الدول الأوروبية الأخرى. وقد انتقلت أيضاً الى صناعة الطيران المدني.

لذلك، تبدو أضرار فضيحة روتش للوهلة الأولى موزعة على المستوى الأوروبي. ولذلك أيضاً، تبدو اللائحة طويلة جداً، وإذا كان روتش قد حصل على معلومات حول كل ما تتعامل به مسز شميت فيمكن القول أنه لم يعد هناك سر عسكري وتقني متطور في أوروبا إلا ووصل الى موسكو.

من الأكيد أن خرائط طائرة «تورنادو» الحربية ذات الصنع الالماني ـ

البريطاني ـ الايطالي التي تفتخر بها أسلحة الجو في هذه الدول قد وصلت الى موسكو، وبعدها يعتقد أن الجاسوس السوفياتي قد توصل الى تصوير خرائط وملفات تتعلق بطائرة «ايربوس» الأوروبية وصواريخ «هوت» و«ميلان» المضادة للدبابات، وصاروخ «رولان» المضاد للطائرات الذي تمكنت أوروبا من بيعه الى الولايات المتحدة. ويخشى أيضاً أن يكون روتش قد حصل على خرائط مشروع الطوافة الفرنسية الالمانية المضادة للدبابات «ب ٢٥» التي كان من المتوقع أن ينتهي صنعها في بداية التسعينات، وتعتبر مثال فخر الصناعة الحربية الأوروبية. ولا يستبعد بعض المحللين أن تكون موسكو قد حصلت أيضاً على خرائط لصاروخ «اريان» الذي بدأ ينافس كولومبيا في تجارة إطلاق الأقمار الصناعية.

من هنا تبدو قضية روتش خطيرة جداً. وهي قد فتحت سجل التجسس الصناعي السوفياتي وتغلغل جواسيس موسكو في المانيا الغربية. فالمانيا أرض خصبة للتجسس السوفياتي بفعل تاريخها، فهي قد ورثت أكبر شبكة جواسيس سوفيات في العالم على أرضها. ويقال بأن موسكو ومخابراتها الشرقية قد تمكنت من إدخال أكثر من ١١ ألف جاسوس اليها قبل بناء الجدار، وما زالت تدخل أعداداً منهم بواسطة اللاجئين من المانيا الشرقية. وقد تمكن هؤلاء من تبوؤ مراكز حساسة جداً في الدولة.

والجدير بالذكر أن قصة الجاسوس روتش تأتي قبل أن ينسى الالمان قصة «غونتر غليوم» ضابط المخابرات الالمانية الشرقية الذي تمكن من أن يصبح سكرتيراً خاصاً «لويلي براندت» قبل أن يتم اكتشافه في العام ١٩٧٤ ويتسبب بهزة سياسية أدت الى الإطاحة بالمستشار الالماني الذي اعتذر اليه ليونيد بريجنيف نفسه أثناء زيارة براندت الى موسكو بحجة أن «غونتر غليوم» كان يتجسس لصالح المانيا الشرقية وليس لصالح الكرملين...

بم ستتسبب هذه الفضيحة الجديدة؟ الأبعاد الحقيقية لم تبدأ بعد...

الى جانب ذلك، كانت سياسة خروتشيف ترمي الى الإبقاء على المانيا

في حرب الأعصاب ليستطيع أن يفرض عليها «حله للمشكلة الالمانية» عاجلاً أم آجلاً، لذلك رأى أن تحتفظ المخابرات الروسية بجهاز واسع من الجواسيس المقيمين والعملاء في الرايخ السابق. فالكرملين بحاجة الى أن يعلم كل ما يجري في المانيا الغربية في الحقلين العسكري والحياة اليومية الروتينية.

يعمل الجواسيس الروس - المدربون تدريباً كاملاً في مدرسة «براخوفكا» والحائزون على أوراق هوية المانية - يعمل هؤلاء ليس فقط في برلين الغربية بل في القطاعات الاميركية والبريطانية والفرنسية من المانيا الغربية أيضاً. والسلطات الالمانية التي تعلم بهذا الأمر، تملك قوة كبيرة من الرجال المدربين على تعقب الجواسيس.

وبالرغم من أن أعداداً كبيرة من الجواسيس الشيوعيين يعتقلون ويقدمون الى المحاكمة، فإن الجهاز الالماني المضاد للجاسوسية نادراً ما يستطيع أن يقبض على الجواسيس الروس. هذا وتعتبر موسكو أن الجاسوسة الماهرة «ماريان» هي أهم من عمل لروسيا في المانيا. وصلت «ماريان» الى «فرانكفورت - آم - ماين» في شهر مايو عام ١٩٥٨. واسمها الحقيقي «ناديزدا ميخيلوفنا ماكاريفا». ولدت عام ١٩٢٥ في خاركوفا وهي ابنة زعيم نقابي روسي.

عندما بلغت ناديزدا عامها الثاني والعشرين وكانت تدرس آنذاك الاقتصاد في جامعة موسكو، صنفت على أنها «صالحة للتدريب الخاص». فمرّت، كغيرها من الجواسيس، بمراحل التدريب المعتاد وانتهى بها المطاف الى «معهد براخوفكا» حيث ألحقت بقسم المانيا ومنحت اسم «ماريان» وكان رقم تسجيلها ج - ٤٧٣٩٠٣ / ٠١٨ - ب. نجحت ماريان نجاحاً باهراً في امتحاناتها بعد عشر سنوات من التدريب في براخوفكا، فأرسلت الى برلين الشرقية وتسللت من هناك في ابريل ١٩٥٨ الى القطاع الغربي من العاصمة الالمدية السابقة. كانت أوراق الهوية التي بحوزتها تشير الى أنها قادمة من

القطاع الاميركي من المانيا الغربية وذاهبة الى برلين الغربية وكانت تدّعي أنها قادمة الى هناك في زيارة.

اختارت موسكو برلين الغربية كبداية لرحلة ماريان لأنها تريد منهـا إنشاء شبكـة جاسـوسية في القـطاع الاميركي من المـدينة بعـد أن تركـز شبكتها في فرانكفورت. أمرتها موسكو أن تسكن لمـدة بضعة أسـابيع في بـرلين الغربيـة لمساعدتها على أن تعتاد على ظروف الحياة هناك. وقد منعت ماريان كغيـرها من الجـواسيس الجدد، من أن تتعـاطى أي نشـاط جـاسـوسي خـلال مـرحلة التأقلم.

لكن ماريان نشطت خلال اقامتها في برلين الغربيـة، فدرست قـطاعات الحلفاء في المدينة. وكتبت تقول في تقاريرها أنها «شعـرت وكأنهـا في وطنها من لحظة وصولهـا». ووضعت الجاسـوسـة المـاهرة المتـدربة في بـراخوفكـا الخطط لاستعمال المـطاعم والأمكنة الأخـرى لمقابلة الـذين سيصبحون فيمـا بعد مساعدين لها.

كـانت شقراء ومثيـرة للغايـة، وسرعـان مـا وجـدت أن معـظم الـرجـال يلاحقونها ويدعونها للخروج معهم. فقررت منذ أيام إقامتها الأولى في بـرلين الغربية أن تستغل مجالها للتعرف على الرجال المهمّين.

وصلت «ماريان» الى فرانكفورت وأقامت في شقة حديثة في بنـاية بنيت بعد الحرب. ثم فتحت مكتباً للأعمال السكرتيرية معتبرة هذه الـوظيفة تغـطية رائعة تستطيع بواسطتها استلام البريـد والاجتماع بـالمساعـدين. وقد تعـاطت التصوير حتى لا تثير الشبهات حول آلات التصوير الموجودة عندها.

بعد أن أوجدت ماريان تغـطية كـاملة لها، شـرعت بالعمـل. كانت قـد درست بتمعن حياة الرجال الالمان على اللائحة التي زودتها بها موسكو والتي تحوي أسماء رجال صالحين للعمل. فاختارت منهم الرجال الذين كـانوا على علاقة سابقة بالحركة النازية وينكرون ذلك، ففي هؤلاء تتوفـر جميع مؤهـلات المخبرين أو ضباط الارتباط.

أثبتت مرحلة التأقلم التي قامت بها «ماريان» صحة ما تعلمته في براخوفكا، وهو أن المال يشتري كل شيء في المانيا بعد الحرب. فقررت استعمال اسلوبي التهديد وتقديم المبالغ الطائلة من المال فحصلت على نتائج من الدرجة الأولى.

لقد نجحت خطط ماريان، فبعد بضعة أسابيع من مجيئها استطاعت أن تجد المخبر الأول. كان هذا الرجل موظفاً في مؤسسة أبحاث لإنتاج الأسلحة السرية وكانت ماريان تحمل رقمه الهاتفي، فاتصلت به في مكتبه وقالت أنه من مصلحته أن يأتي لمقابلتها في مكتبها. وكانت مقنعة للغاية فجعلت الرجل المتخوف من مقابلة غريبة يرضى في النهاية أن يقابلها.

جاء الرجل في الموعد المحدد وصعق عندما طلبت منه ماريان ـ دون مقدمات ـ أن يزودها بالوثائق والمعلومات وبجميع ما تحتويه القائمة السرية في المؤسسة التي يعمل فيها، وأضافت أنها مستعدة لدفع مبلغ محترم من المال لقاء ذلك. ولكن عندما قال لها الرجل غاضباً أنه كوطني الماني يرفض أن يزودها بشيء وهددها بتسليمها للشرطة، دعته ماريان الى رفع سماعة الهاتف والاتصال بالشرطة وأضافت أنها ستقدم الاثباتات الدامغة للشرطة الالمانية والسلطات الاميركية على أنه يعيش ويعمل في فرانكفورت مستعملاً أوراق هوية ميت وأنه مطلوب بتهمة جرائم حرب.

حاول الرجل في بادىء الأمر أن ينفي التهم وهددها بأن يقيم دعوى بحقها بتهمة القدح والذم، لكنه رضخ أخيراً عندما ذكرت له تفاصيل عن حياته الخاصة وادعت أن المستمسكات كلها بين أيدي أصدقائها الذين يستطيعون التعرف عليه بسهولة لأنهم عملوا معه في شرطة هتلر السرية.

أرسلت ماريان تقريراً مفصلاً بالشيفرة الى رؤسائها في موسكو عن المساعد الجديد، كان يحوي خبراً يقول أن المخبر الجديد تعهد بأن يأتيها في اليوم الثاني بوثيقة هامة ليجري تصويرها. وبالفعل فإن صورة الوثيقة السرية حول الصواريخ الموجهة أرسلت بعد يومين في الطريق غير المباشرة

الى موسكو. كانت مخبأة في فرشاة حملها رسول لا شكوك حوله الى برلين الغربية حيث أرسلت من هناك الى المانيا الشرقية.

اعتمدت ماريان على المخبر الجديد منذ أيام عمله الأولى واعتبرته أحسن مخبر عندها. خلال الأشهر الست الأولى من إقامة ماريان في فرانكفورت، استطاعت أن تنشىء شبكة واسعة من المخبرين وضباط الارتباط والعملاء المكلفين بالمهام الخاصة.

فقد كان جهاز الإرسال اللاسلكي المتنقل الذي تملكه يعمل باستمرار وكذلك المكتب، حيث كان يجري تصوير الوثائق والمستندات. وكما كان المكتب يستلم أيضاً التعليمات المكتوبة بالشيفرة، أصبح مكتب أعمال السكرتارية عاملاً مساعداً لماريان حيث كان عملاؤها يصورون المستندات الهامة وكأنهم يؤدون واجبات السكرتير النشيط. رغم أن ماريان ركزت عملها على تحصيل المعلومات عن الدولة الالمانية الغربية والصناعات فيها، إلا أن شبكتها امتدت الى الأوساط الاميركية في المانيا. وقد أكدت القيادة العامة للمخابرات الروسية أن «المعلومات المستقاة من المراجع الاميركية في المانيا الغربية ذات أهمية قصوى لأنها مكملة للأخبار المستقاة من المراجع الالمانية الغربية ذاتها». . .

أصبحت ماريان على استعداد لتوسيع نشاطها بحيث يشمل برلين الغربية. فأقامت هناك وفتحت مكتباً للأعمال السكرتيرية في شقة محترمة. كان العمل في برلين الغربية أسهل منه في فرانكفورت. فهناك تستطيع ماريان الاعتماد على العديد من العملاء المدربين الذين يأتون يومياً من القطاع الشيوعي في برلين الشرقية للعمل في المنطقة الغربية. ويستطيع هؤلاء العملاء المكلفون بالمهام الخاصة أن يجازفوا، لأنه من السهل عليهم أن يعودوا في الحالات الطارئة الى المنطقة الأمينة.

استمر عمل ماريان في المانيا الغربية حتى أول أسبوع من شهر آذار/مارس عام ١٩٦١. بعد ذلك الحين لم تذكر التقارير في موسكو شيئاً عنها.

والواقع أن هذين الجاسوسين السوفياتيين في المانيا الغربية لم يكونا إلا حلقة أساسية من سلسلة تمثل جيشاً روسياً أحمر في عاصمة الحربين العالميتين.

وقد برهن السوفيات عن عمق واسع في الرؤيا، وعن نظرة ثاقبة لمخاطر إشعال حرب عالمية ثالثة، تشعل شرارتها أيضاً المانيا.

وكان لابد من فرز هذا الجيش القائم بذاته لتلافي الكوارث المزمع وقوعها على يد تلك الدولة التي احترفت عملية إشعال الحروب العالمية، وتحميل البشرية بأجمعها كثيراً من الويلات والمآسي والألام. وما زالت آثار الحربين العالميتين - الأولى والثانية - ترتسم في مخيلة الملايين من البشر الذين عانوا الأمرين منها. وفي الوقت الذي كانت فيه الجاسوسية بمثابة حرب أدمغة لا حرب سلاح ونار، فإن جاسوسية الاتحاد السوفياتي في المانيا الغربية هي حرب على الحرب بحد ذاتها، من أجل انقاذ البشرية من خطر محتمل تسعى اليه دول العالم الحر عبر المانيا نفسها.

وما أروع التغلغل في نخاع «محترف الحروب» وأعصابه، موقّفاً ابرة بوصلته الإجرامية، بهدف التأثير على العقل الأطلسي برمته وتعطيله عن التفكير في قضية إبادة الجنس البشري، وبشكل أكثر وحشية وبربرية من تلك التي عرفتها مدينتا هيروشيما وناغازاكي اليابانيّتان في نهاية الحرب العالمية الثانية.

واذا كانت دول حلف شمالي الأطلسي جديرة بإشعال الحروب العالمية، فليس هناك أجدر من الاتحاد السوفياتي في حمل لواء السلام والدفاع عن كل الشعوب الموضوعة على اللائحة السوداء للإمبريالية العالمية.
من بقاع العالم. لذلك فقد جهدت في سبيل تفكيكه وانهياره، ونجحت أخيراً في الوصول الى الهدف والمبتغى.

المراجع

١ ـ مجلة «الوطن العربي» الباريسية. العدد ٣٩٩. الجمعة من ٥ الى ١١ تشرين أول/اكتوبر ١٩٨٤. ص ٤٢.

٢ ـ ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ١٨٨ ـ ١٩٤.

٣ ـ د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٤٥ ـ ٥٠.



المخابرات السوفياتية تتغلغل
في نخاع كندا

منذ ظهور الاتحاد السوفياتي الى الوجود، اعتبر زعماؤه أن الجاسوسية، بأية صفة وشكل من أهم الأسلحة التي يعتمد عليها، وبالتالي فقد فعلوا كل شيء من أجل إنشاء منظمة من شأنها أن تتفوق على أية دائرة استخبارات في العالم، اذ أن الهم الاستخباراتي في الاتحاد السوفياتي كان على رأس لائحة الهموم التي كانت تمثل الهاجس الأكبر لزعماء روسيا باعتبار أنها كانت تطمح الى تبوؤ المركز الأول في هذا المضمار عبر النفاذ الى معرفة كل ما يتعلق بأعدائها أكثر من معرفة هؤلاء الأعداء، حتى عن أنفسهم هم.

وقد تمكنت موسكو أن تفاخر عن حق وحقيق بأنها تملك أضخم وأكفأ شبكة جاسوسية في العالم. وإحدى أفظع القضايا في تاريخ الجاسوسية الدولية هي بدون منازع قصة «آيلين»، العانس الانكليزية التي سافرت من انكلترا الى كندا لتفتح متجراً صغيراً في أوتاوا.

فما هو سر قصة «آيلين» هذه؟ ولماذا اختارتها الاستخبارات السوفياتية للعمل في كندا؟.

كانت «آيلين» انكليزية الطبع الى درجة أن أصدقاءها الكنديين والزبائن الذين كانوا يترددون الى متجرها، يسخرون من طريقة السلوك «الاكسفوردية» عند هذه الامرأة العادية ذات العمر غير المؤكد. لكنها كانت محبوبة. وكان يتردد العديد من الزبائن الى متجرها الصغير ذي الطابع الانكليزي.

لكن «آيلين» كانت بعيدة كل البعد من أن تكون انكليزية. كان اسمها

الحقيقي «تانيا ماركوفنا راديونسكا»، وهي ابنة عقيد في الشرطة السرية الروسية. ولدت عام ١٩٢٤ في مورمانسك. وقد أهّلتها بيئتها لأن ترشح للعمل في المخابرات. وفي سن الواحدة والعشرين، كانت «آيلين» قد اجتازت كل امتحانات التدريب على الجاسوسية، وأصبح اسمها «آيلين» عندما وصلت «غاكزينا» (وهي أكبر معاهد التدريب السوفياتية على التجسس) حيث سجلت تحت رقم ب - ٤٨٠٨٢٢/ ٠٣٩ ج.

تسللت «آيلين» الى انكلترا في مايو عام ١٩٥٨، ومكثت تسعة أيام في كاربيل لتعوّد نفسها على ظروف الحياة في المملكة المتحدة. ثم انتقلت الى لندن حيث سكنت منطقة «كنغز كروس» مدعية أنها تبحث عن عمل في متجر. ورغم أنها كانت تبدو وكأنها تفعل المستحيل لتحصل على وظيفة ملائمة، كانت تعود كل يوم الى مسكنها قائلة أنها لم تستطع الحصول على عمل.

كان كل هذا مجرد استعداد لمشاريعها في المستقبل. فقد أرسلت لها القيادة العامة للمخابرات في موسكو أوامر بالبقاء في لندن دون القيام بأي نشاط تجسسي والتحضير للسفر الى كندا!... ولكي تبرر عزمها على السفر الى كندا، ادعت «آيلين» أنها فشلت في ايجاد وظيفة تلائمها في لندن.

ففي مناسبات عديدة كانت تقول لصاحبة المنزل وللذين يشاركونها السكن في منزلها أنها قد ضجرت من البقاء عاطلة عن العمل وأنها لا تستطيع إنفاق جميع ما ادخرته. وعندما أعربت عن عزمها في الهجرة الى كندا، شجعها البعض على تحقيق ذلك بما فيهم صاحبة المنزل قائلين أن الحياة هناك أحسن مما هي في انكلترا.

رغم أن «آيلين» اتخذت جميع الخطوات اللازمة للسفر الى كندا، ورغم أن الدائرة الثالثة في الإدارة الخارجية في موسكو زودتها بأسماء «أقارب» و«أصدقاء» كنديين، فالأمور لم تسر بالسرعة المطلوبة. فقررت

«آيلين» أن تترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي ما دامت موسكو مصرّة على عدم التسرّع حتى لا تثير الشبهات حولها.

ساعدها مكوثها بدون عمل في لندن من عدة نواح، فخلال أشهر اقامتها في العاصمة البريطانية أصبحت أكثر «انكليزية» من أية فتاة مولودة في انكلترا. وأنشأت صداقات مع فتيات يعملن في المخازن والمكاتب، وكانت هذه الفتيات يشفقن عليها ويدعونها الى منازلهن. لكن هذه لم تتكرر لأن «آيلين» في الواقع فتاة مرحة. وجاء اليوم الذي تركت فيه «آيلين» مسقط رأسها وأبرحت الى كندا حيث وصلت في آذار/مارس ١٩٥٩.

لم تكن الحاجة تدعو لكي تتأقلم هذه الفتاة في البلد الجديد، فكونها مهاجرة اليه يفترض فيها أن تكون غريبة عن الحياة الكندية. ولكن موسكو طلبت منها أن تنتظر أوامر جديدة للبدء في العمل الجاسوسي. فمكثت «آيلين» مدة ستة أسابيع في مونتريال وعملت بائعة في مخبز لتعطي الانطباع عن نفسها أنها مهاجرة عادية.

وعندما وصلتها الأوامر بالتوجه الى أوتاوا، حاولت مديرة المخبز اقناع البائعة القديرة بالبقاء لكن «آيلين» ادعت أن لها عمة في أوتاوا قد أصيبت بمرض مفاجيء وهي بحاجة اليها.

استأجرت «آيلين» شقة ثمينة عند وصولها الى المدينة الغربية وادعت أن عمتها قد توفيت وتركت لها مبلغاً كبيراً من المال. وهكذا استطاعت منذ الأسبوع الأول من إقامتها في أوتاوا أن تجد أول مساعد لها حيث كانت قد قابلته في مطعم. واكتشفت بعد أول كلمات تبادلتها معه أنه يجب الاجتماع بأناس قدموا حديثاً من انكلترا. فقررت أن تستعمله. وكتبت في رسالة لها بالشيفرة الى موسكو: «وقلت له بأني لا أستطيع استلام الرسائل الشخصية في منزلي، وسألته ما اذا كان يمانع من أن ترسل رسائلي الى عنوانه».

لم يجد الشاب أي شيء غريب في طلب «آيلين»، فوافق. ومنذ ذلك الوقت، أخذت، الرسائل بالشيفرة ورسائل من موسكو تصلها الى صندوق

البريد. صادقت «آيلين» الشاب وراحت تغدق عليه الهدايا لكنها لم تحاول أن تدعوه الى القيام بمهام جاسوسية. فهو لا يستطيع أن يأتي بأية معلومات سرية من مؤسسته وتكليفه بمهام اتصال يكون عملاً انتحارياً لأنه ساذج للغاية ولابد من أن يثير شبهات الجاسوسية الكندية. ففضلت أن تبقي على جهله للأمر واستعماله «كصندوق بريد» دون أن يعلم هو أنه قد أصبح حلقة وصل هامة في شبكة للجاسوسية.

خلال أول أربعة أشهر من إقامتها في أوتاوا، استطاعت أن تصبح جاسوسة رئيسية، كان أهم عامل مساعد لها أنها اختارت أن تلعب دور امرأة انكليزية في منتصف سنيها الثلاثين.

لكن «آيلين» التي كانت تبدو كثيرة الاهتمام بالأعمال الخيرية والتي كانت دوماً على استعداد لمساعدة أي محتاج، لم تكن فقط تدير شبكة جاسوسية بل عصابة إرهاب تتولى خطف وقتل الناس.

فقد أمرت بقتل مهندس الكتروني من أصل الماني يعمل في مصنع في كندا. اعتبروه صالحاً للعمل معها كمخبر لاطلاعه الوثيق على انتاج وتطور المصنع الذي يعمل فيه. إلا أنه هددها بإطلاع السلطات على نشاطها رغم تهديدها إياه بأن أقاربه الذين لا يزالون يسكنون المانيا الشرقية سوف «يعتنى بأمرهم» اذا هو رفض التعاون معها، فقد دبرت عملية تخديره وقتله بواسطة جهازها الارهابي بحيث تظهر الوفاة كأنها نتيجة انتحار.

ومن أعمالها الأخرى أنها استطاعت أن تخطف مهاجر سلافي يعمل رساماً في مكتب لتصميم الطائرات وأن تنقله بنجاح الى موسكو. فهو أيضاً لم يرضخ لتهديدها وقال أنه سيبلغ السلطات عنها. وقد عنى ما قاله، لكنه لم يفلح في الاتصال بالشرطة. فبينما كان يمشي في شارع قريب لمنزله، توقفت بجانبه سيارة وترجل منها رجال ضربوه ونقلوه الى منزل مهجور في الريف. وعندما توفرت أساليب السفر، حقن بالمخدر وأجري تهريبه على سفينة الى روسيا وهو في حالة غياب عن الوعي.

وحتى أغسطس ١٩٥٩، كانت «آيلين» قد دبرت عدداً من عمليات الخطف والقتل ضد «عناصر تشكل خطراً على الشبكة» مما اضطر موسكو الى أمرها بوقف نشاطها الارهابي لأن هذاسيعرضهاعاجلاً أم آجلاً الى أن تصبح موضع الشبهات وبالتالي الى فضح نشاطاتها. ولكي تتأكد موسكو من أن «آيلين» سوف تنفذ الأوامر المرسلة اليها، أوكل الى عميل بمراقبة أعمالها وإرسال تقارير دورية عنها.

وبالرغم من جهلها بأن العملاء السوفيات يراقبونها، أطاعت (آيلين» أوامر موسكو، خاصة وأن «غاكزينا» تدرب تلاميذها على الطاعة لا على العصيان. لكنها استمرت في استعمال التهديد بالفضح واستعمال القوة في بحثها عن المخبرين والمعلومات. لم تتدخل موسكو في هذا النشاط، لأن «آيلين» كانت ترسل تقارير ومعلومات بالشيفرة تفوق قيمتها أي تقارير أخرى يرسلها الجواسيس المقيمون الآخرون. ووافق رؤساؤها على إطلاق يدها بالعمل. حتى يوليو عام ١٩٥٩، كانت آيلين ما تزال تعمل بائعة في متجر للألبسة النسائية في قلب أوتاوا، لكنها وجدت أن التزامها بهذا العمل لا يترك لها وقتاً كافياً للإنصراف الى نشاط الجاسوسية المتزايد باستمرار، فتركت عملها،ولكنها أدركت أنها بحاجة الى واجهة تخفي وراءها عملها الحقيقي، فقررت أن تفتح عملاً لها. وجدت متجراً ملائماً بمساعدة أحد العملاء إلا أنها خلافاً للجواسيس الروس الآخرين، لم تستعمل آيلين متجرها ـ الواجهة كمركز التقاء للمخبرين وضباط الاتصال والعملاء المساعدين، فقد كانت تفضل الاجتماع بهم في الأماكن العامة.

وفي عطلة عيد الميلاد حدث انقلاب غير منتظر في حياة الجاسوسة. فقد دخل متجرها شاب وسيم باحثاً عن هوية لوالدته وأعجب بآيلين المهذبة واستطاع أن يقنعها بالخروج معه. ولأول مرة في عملها كجاسوسة تخلت آيلين عن الانطباع الذي أعطته عن نفسها بأنها لا تخرج مع أحد.

ورغم أنها كانت أذكى الجواسيس التابعين للمخابرات الروسية وأكثرهم

حزماً، فقد بقيت حتى يناير من عام ١٩٦٠ لتكتشف أن حبيبها الذي عرض عليها الزواج هو ضابط في الشرطة. فأبلغت موسكو بالأمر بأسرع وقت وتلقت أمراً بالاستمرار بصداقاتها للضباط ومحاولة معرفة المعلومات المتوفرة عند البوليس الكندي عن الجاسوسية الروسية. وذهب رؤساؤها الى أبعد من ذلك حيث اقترحوا عليها أن تقبلَ عرض الزواج اذا اقتضى الأمر.

استطاعت آيلين أن تحصل على معلومات مفيدة من حبيبها. فمنه سمعت لأول مرة عن «ايغور غوزنكو» موظف الشيفرة في السفارة الروسية في شارع شارلوت في أوتاوا، الذي فضل الحرية - كما قال - وسلم نفسه للسلطات الكندية. وإن هذه القصة في الواقع تستحق التسجيل. فقد قرر غوزنكو في ٥ اكتوبر ١٩٤٥ أن يطلب اللجوء السياسي في كندا. وقد كانت فكرة الفرار من السفارة الروسية تراوده منذ زمن. وعلم أن عليه اثبات حسن نيته للكنديين للحصول على حق اللجوء السياسي. فقد أجرى احتياطات كثيرة وبعيدة المدى لقطع علاقاته نهائياً بالسوفيات. من أجل ذلك اختار مجموعة كاملة من الوثائق تثبت أن عشرات من الدبلوماسيين الروس في أوتاوا والمدن الكندية الأخرى يقومون بنشاط هو أبعد ما يكون عن العمل الدبلوماسي. وكان ايغور قد تلقى تدريباً قصيراً ومفيداً في المخابرات، فترك وثائق السفارة، البالغة الأهمية، في ملفاتها الطبيعية - في حال تعرضها للتفتيش من قبل المسؤولين، بينما هو يقوم بالتحضير للهرب - وعلم الوثائق التي يحتاجها ليسهل عليه تمييزها في اللحظة الأخيرة قبل هربه.

وفي ساعات النهار الأولى من مساء الخامس من تشرين الأول/اكتوبر، قرر «غوزنكو» أن «ساعة الصفر» قد حانت فترك السفارة وتوجه حالاً الى مكاتب احدى الصحف حاملاً في جيبه معلومات كفيلة بوضع اثني عشر دبلوماسياً وجاسوساً في السجن. لكن محرر الصحيفة لم يقتنع بأن الوثائق التي يحملها موظف الشيفرة حقيقية. فتخلص منه بطريقة لبقة مدعياً أنه بحاجة الى التفكير بالأمر وطالباً منه أن يعود اليه فيما بعد.

أدرك «غوزنكو» أن عليه أن يعمل بسرعة قبل أن يتعقبه الجواسيس الروس في أوتاوا ويعيدوه الى السفارة. وفي حيرته هذه، ذهب لمقابلة عدد من الموظفين الحكوميين ولكنه حيثما ذهب كان يلاقي استقبالاً كالذي لاقاه في الصحيفة.

وفي النهاية ساعدت السفارة الروسية غوزنكو من حيث لا تدري. فقد تلقى ضابط الأمن في السفارة نبأ اختفاء موظف الشيفرة وقرر اتخاذ الخطوات اللازمة لإرجاع الهارب. وعندما كسر رجال مجهولون باب الشقة التي يسكنها غوزنكو وقلبوا حوائجه رأساً على عقب، قرر البوليس الكندي العمل ووضع موظف الشيفرة تحت الحماية. وعندما روى اللاجيء قصته وأثبت صحة أقواله بتسليمه الوثائق لم يعد يعامل بالحواجب المرفوعة والبسمات المتشككة. هذه المرة صدّقه الناس. وطبعاً رفضت السلطات الكندية طلب السفارة الروسية بتسليمها غوزنكو لمحاكمته «بتهمة خطيرة» ولكونه لصاً، بالعكس فقد منحته اللجوء السياسي، واعترفت المنظمات الغربية المضادة للجاسوسية أنها لم تكن تشك في أن السفارة الروسية في أوتاوا مركزاً لشبكة واسعة، وأنها كانت ستظل على جهلها الى الأبد لولا «ايغور غوزنكو».

لما سمعت آيلين هذه القصة، قالت لحبيبها أنها تجد صعوبة في أن تصدق المخابرات الكندية المضادة الى الاعتماد على معلومات من روس فارين لتعقب الجواسيس الروس وانتقدت الشرطة الكندية لقلة يقظتها. قالت هذا لتعلم مدى معرفة متعقبي الجواسيس الكنديين بشبكة المخابرات السوفياتية وماهية الخطوات التي يتخذونها. وكتبت الى موسكو تقول أن خطيبها «لا يعرف شيئاً عن هذا، أو أنه حذر الى درجة أنه يرفض أن يقول لها».

استطاعت آيلين أن تواصل نشاطها التجسسي الفريد من نوعه دون عقبات. لكنها في آذار/مارس ١٩٦١، تلقت الأوامر من رؤسائها بمغادرة كندا، وزودتها «الدائرة الثالثة» برسائل «حقيقية» من انكلترا تقول أن عمها على

فراش الموت ويطلب مجيئها فوراً. كانت قصتها مقنعة الى درجة أن خطيبها لم يشك بشيء بل شجعها على السفر بأسرع وقت.

ومن المؤكد أن «تانيا ماركوفنا راديونسكا» قد أخذت - ثانياً - لنفسها اسماً جديداً لتمارس تجسسها من خلاله في مكان جديد.

والواقع أن آيلين لم تكن الوحيدة، جاسوسة سوفياتية في كندا، ورئيسة لشبكة تجسسية فيها، بل كان هناك أيضاً من الجواسيس الروس، كثير يسرح ويمرح بفضل السواتر التى كانوا يتخذونها لممارسة جاسوسيتهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال، الكولونيل زابوتين، الجاسوس الروسي المقيم وهو من خريجي «غاكزينا». وقد عاش في كندا ولم يشتبه به أحد. وقد جند عدداً كبيراً من أعضاء الحزب الشيوعي الأوفياء لفرعه الواسع النطاق. وهو قد اقترب فقط من الرفاق الذين تسلم أسماءهم من موسكو والذين صنفوا في دائرة الاستخبارات السرية في موسكو بانهم «أوفياء للغاية ويمكن الاعتماد عليهم».

وكذلك الدكتور «آلن فون ماي» الجاسوس الذري الذي كان مخبراً في شبكة جاسوسية الحزب الشيوعي الواسعة، وقد ألقي القبض عليه فيما بعد وحكم عليه بالسجن لمدة طويلة.

وقد أصدرت اللجنة الملكية المكلفة «بالتحقيق في قضية تصريف المعلومات السرية الى عملاء قوة أجنبية» تقريرها النهائي، وهو مستند مؤلف من سبعمائة صفحة، يصف متشعبات الاستخبارات السرية السوفياتية في كندا على الطريقة التالية:

وصفت الحركة الشيوعية في كندا بأنها القاعدة التي يؤخذ منها عملاء الجاسوسية وقد نجح السوفيات نجاحاً كبيراً في تجنيد الكنديين للحصول على المعلومات السرية.

كان يتأثر الكنديون في الشبكة بمبدئهم السياسي والانطباع النفساني

اللذين تلقوهما في مجتمعهم الدراسي. وقد أدخل بعدئذ الكسب المالي تدريجياً. كانت المنظمة تهتم اهتماماً خاصاً بالحصول على معلومات تحص بالأدوات التي ستستعمل للدفاع عن كندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة. لم يكن أحد في كندا يعرف كيفية صنع القنبلة الذرية، لذلك كانت المعلومات عن الرادار والأجهزة المضادة للغواصات والمتفجرات والمحركات. أن العضوين الرئيسيين في منظمة الجاسوسية هذه كانا: «سام كار» من مونتريال و«فريد روز» عضو في البرلمان عن مونتريال.

تمكن الدكتور «آلن فون ماي» من الحصول على نماذج من أورانيوم ٢٣٥ وأورانيوم ٢٣٣ التي تنتج عنهما الطاقة الذرية، وسلمها الى الملازم الأول «انجلوف» من شبكة الجاسوسية السوفياتية في كندا، وقد أرسلت هذه النماذج بالطائرة الى موسكو بواسطة الملازم الأول «موتينوف» والذي هو جاسوس سوفياتي آخر يعمل في كندا. وقضيته الدكتور «آلن فون ماي» معروفة وقد دخلت التاريخ من بابه الواسع لأنها تصور الخسارة التي سببها الجواسيس الشيوعيون «الهواة» وهم يسببونها الآن للعالم الحر.

المرجع

ـ ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ١٤٨ ـ ١٥٨. و٢٣٨ ـ ٢٣٩.

المخابرات السوفياتية تتغلغل في الحياد السويسري

بالرغم من طابع «الحياد» الذي تتميز به سويسرا إلا أنها لم تفلت من قبضة المخابرات السوفياتية التي وجدت فيها حقلاً خصباً لتغلغل شبكة تجسسية اعتبرت من أهم الشبكات خلال الحرب العالمية الثانية، سواء من حيث كمية المعلومات التي حصلت عليها أو قيمتها أو مدى تغلغل مصادرها في الأوساط الحكومية والعسكرية الالمانية. واذا كان هناك كثير من شبكات الحلفاء التي مارست نشاطاً متزايداً ضد المانيا من داخل أراضيها أو من الدول المجاورة لها (الشبكات الانجليزية في البلاد الواطئة والدانمارك وسويسرا الشبكة الاميركية في سويسرا وبعض الدول التي خضعت للإحتلال الالماني) فإن الشبكة السوفياتية بسويسرا تأتي في المرتبة الأولى بالنسبة لها من حيث مدى أهمية انجازاتها بصفة عامة ومساهمتها خاصة في الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة التي تنتمي اليها وهو نشاط هائل وكبير بالفعل.

فما هو سر هذه الشبكة؟ وما هي دوافع تكوينها؟ وكيف كانت انجازاتها؟.

رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي وسويسرا حيث قطعت العلاقات بينهما منذ عام ١٩٢٢ ولم تستأنف إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبالتالي عدم توافر هيئات أو أفراد تابعين لموسكو يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية ويمكن أن يقوموا مباشرة بإنشاء وتشغيل شبكات للجاسوسية أو حتى القيام بدور مساعد لها (وقد اتضح بعد ذلك مدى أهمية تواجد هؤلاء الأفراد والمنظمات في سويسرا لتقديم المساعدات المالية والفنية والحيلولة دون انهيار الشبكة في وقت مبكر نسبياً).. رغم ذلك حرص

المسؤولون في المخابرات السوفياتية على أن تكون سويسرا في مقدمة مراكز نشاطهم في أوروبا نظراً للعوامل التالية:

أولاً: وجود حدود مشتركة بينها وبين المانيا والدول الأخرى التي سيطرت عليها (فرنسا ـ النمسا مثلاً) مما يساعد شبكاتها على سهولة استقبال المعلومات التي ترد من مصادرها في هذه الدول أو البحث عن مصادر جديدة فيها.

ثانياً: توافر مصادر معلومات غزيرة داخل سويسرا نفسها من جانب الالمان المعادين للنازية أو الموالين للشيوعية أو الجواسيس المأجورين أو غيرهم.

ثالثاً: الحياد الذي تمتعت به وعدم توافر احتمالات مؤكدة لهجوم المانيا عليها نظراً للظروف الدولية والداخلية التي كانت سائدة حينئذ.

رابعاً: عدم وضعها لقيود مشددة على نشاط شبكات الجاسوسية التابعة لدول الحلفاء بعكس الشبكات الالمانية التي قيدت نشاطها بالمقارنة بموقفها من شبكات الحلفاء.

خامساً: ما لمسه المسؤولون السوفيات بعد ذلك من تعمد إمداد سويسرا للشبكة السوفياتية بمعلومات حيوية عن المانيا لاعتقادها أن ذلك يخدم المصلحة العليا السويسرية حيث كانت الحكومة السويسرية تخشى من انتهاك المانيا لحيادها والاستيلاء على الاقاليم التي يقطنها المواطنون السويسريون الذين يتكلمون اللغة الالمانية. وأدركت ـ لذلك ـ أن تأخر انهيار الاتحاد السوفياتي وتحول مجرى الحرب لصالحه سيحول دون شروع المانيا في تنفيذ مخططاتها تجاهها.

يمتد تاريخ وجود الشبكة السوفياتية في سويسرا الى ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، ولم تأخذ شكلها الكبير الذي عرفت به إلا بعد قيام الحرب وبروز نوايا المانيا التوسعية واتجاهها لتنفيذ مخططاتها لغزو الاتحاد

السوفياتي. ورغم ارتباط النشاط الحقيقي للشبكة بالظروف التي مرت بها العلاقات الالمانية السوفياتية، إلا أنه ارتبط أيضاً بشكل أساسي بوجود ثلاثة أشخاص يعملون على رأس الشبكة حركوا أحداثها وصنعوا انجازاتها وتسببوا بصفة جوهرية في النجاح الذي وصلت اليه وهم: الكسندر رادو (المدير المقيم لها) ورودولف روسلر (أهم مصادر المعلومات للشبكة) وألكسندر فوت (الرجل الثاني لها). وهنا لابد من الإشارة الى هذه الشخصيات وانجازاتهم وتأثيرهم على أعمال الشبكة ومهماتها.

فأول ما يفرض نفسه علينا عند الحديث عن «الكسندر رادو» هو أنه لم يكن جديراً بمنصب المدير المقيم للشبكة واحتلاله بالتالي للمركز الأول بين أعضائها، وذلك على ضوء القواعد الأساسية لفن المخابرات ودقة اختيار الأجهزة السوفياتية لعملائها. فرغم اتجاهاته الشيوعية ونشاطه المبكر في خدمتها حيث كان أحد قادة الثورة الشيوعية في المجر عام ١٩١٨ وهجو الى موسكو في أعقابها، وكلف بالقيام بمهام كبيرة لصالح الحزب والمخابرات في السويد والنمسا والمانيا وفرنسا، فإنه لم يرتق الى المستوى الذي يحتمه عليه مركزه بالشبكة وطبيعة العمل السري الذي يجب أن يغلف معظم أوجه نشاطه المتعلق بها إن لم يكن جميعها، ويدل على ذلك:

- اسرافه في انفاق أموال الشبكة بغير تدبر مما أسفر أولاً عن جذب اهتمام أجهزة مقاومة الجاسوسية الالمانية والسويسرية اليه وثانياً الى التعجيل بوقوع الشبكة في أزمة مالية كانت من بين الأسباب الرئيسية التي أدت الى توقف نشاطها في وقت تعذر فيه إمدادها بأية مساعدات من جانب موسكو أو الحزب الشيوعي السويسري.

- احتفاظه بقوائم مصروفات الشبكة التي تكشف بوضوح تفاصيل نشاطها المالي.

- سهولة تقبله للإثارة وعدم قدرته على السيطرة على شعوره في الأوقات الحرجة.

ـ تورطه في إقامة علاقة مع إحدى عميلات الشبكة والتي كانت من أهم الأسباب التي أدت الى كشف نشاط الشبكة وإدانة أعضائها.

ـ عقد اتصالات بينه وبين زعماء الحزب الشيوعي السويسري ومخالفة بعض إجراءات الأمن الأخرى. رغم كل ذلك، فإن هذا لا يعني انعدام الفوائد التي حصلت عليها الشَبكة من رئاسته لها أو انتفاء وجود جميع شروط العميل الناجح فيه حيث اتخذ ساتراً جيداً لتغطية نشاطه كأحد مديري وكالة متخصصة في الموضوعات والخرائط الجغرافية، مما أتاح للشبكة مصادر هامة للمعلومات .أما «رودولف روسلر» فإنه يعتبر من أهم العملاء الذين عملوا في ميدان المخابرات خلال الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة، وجميع المراحل التاريخية السابقة بصفة عامة، سواء من حيث كمية المعلومات التي حصل عليها أو إرتفاع مستوى المصادر التي حصل منها على هذه المعلومات أو التقارب الزمني لإمداداته منها حتى وصلت أن تكون يومية في بعض الأحيان.

ولابد هنا من الإشارة الى ما ذكره كبار الكتاب والجواسيس عن روسلر في هذا المضمار. وقد أشار «لاديسلاس فارجو» مؤلف كتاب «حرب الدهاء» «أنه من النادر أن يكون لجاسوس بمفرده أثر حاسم على مجرى التاريخ. ولكن رودولف روسلر كان ذلك الرجل كما أوضح رونالد سيث «مؤلف كتب: فن الجاسوسية، تاريخ الجاسوسية اليابانية، الجاسوسية على المشرحة» بأنه ليس من المبالغة في شيء اذا قيل أن الاتحاد السوفياتي مدين بالنصر الذي أحرزه على المانيا لروسلر أكثر من أي شخص آخر بما في ذلك ستالين نفسه.

وعلى هذا الأساس أشار «دافيد دالن» في كتابه «الجاسوسية السوفياتية» الى «أن روسلر لم يؤد فقط أعمالاً هامة في الجاسوسية السوفياتية لعدة سنوات، ولكنه كان أيضاً من بين كبار الجواسيس». وكذلك كتب «الكسندر فوت» (الرجل الثاني في الشبكة السويسرية ومؤلف كتاب الموجز للجواسيس) ان أعمال روسلر هي التي مكنت الاتحاد السوفياتي من الانتصار على المانيا، حيث أرسل الى موسكو معلومات عن موقف القوات الالمانية في الجبهة

الشرقية يوماً بيوم.

لم تقتصر الدوافع التي وقفت وراء قيامه بالدور الملموس في كسب الاتحاد السوفياتي للحرب ضد المانيا على عامل واحدفقط، بل امتزجت عوامل عديدة تمثل في النهاية دوافعه التي تفسّر موقفه هذا ومنها على سبيل المثال:

- يعتبر عداؤه للنازية العامل الأساسي الذي دفعه للعمل ضدها. وقد اتخذ ذلك صوراً عنيفة في وقت مبكر نسبياً حيث كان يهاجمها باستمرار في احدى الصحف المحلية، وهاجر الى سويسرا بعد استيلاء قادتها على الحكم عام ١٩٣٣، وأنشأ داراً للطباعة في «لسوزيرن» تخصصت في إصدار المطبوعات المناهضة للنازية... وذلك بعكس كثير من الالمان الآخرين الذين تبلورت ميولهم العدائية تجاه النظام بعد تعرض الجيوش الالمانية للهزيمة، وظهور احتمالات عدم كسبها الحرب وبالتالي تعرض مستقبل الأمة الالمانية برمتها للخطر.

- لا يستطيع أحد أن ينفي أن رغبة روسلر الشديدة في الحصول على المال هي الدافع الثاني والهام الذي حرك أعماله. وتدلنا المبالغ الشهرية الكبيرة التي حصل عليها من الاتحاد السوفياتي (١٧٠٠ دولار) على حقيقة هذا الرأي.

إلا أن ما يجب الاعتراف به أن أعمالاً كتلك التي قام به روسلر كانت تفرض بمبالغ طائلة كمستلزمات وضرورات لابد منها.

- يحرص بعض الكتاب الغربيين باستمرار على تأكيد أن نشاط روسلر لصالح الشبكة كان بناء على أوامر وتحت إشراف السلطات السويسرية، إلا أن انضمامه لعضوية جمعية كاثوليكية يسارية وحصوله على مبالغ طائلة من النقود، فضلاً عن قبض السلطات السويسرية عليه مرتين بتهمة الجاسوسية، يدل على أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع بشكل كامل،بل يوضح أن هذا

الإشراف كان ضمن الإطار العام الذي غلف موقف المسؤولين السويسريين تجاه أجهزة المخابرات التابعة للحلفاء، ويتمشى رأي «الكسندر فوت» مع هذا الاتجاه الأخير حيث لم يؤيد الرأي السابق بل أوضح أن روسلر ظل مخلصاً للمسؤولين السويسريين وللروس. وأنه نظراً لحسن حظه لم تتعارض مصالح كلتا الدولتين.

والجدير بالذكر أن المعلومات التي حصل عليها روسلر فاقت جميع ما حصل عليه الأعضاء الآخرون، مما أعطى له أهمية خاصة بينهم وجعل المشرفين على الشبكة في موسكو يحرصون باستمرار على كسب وده بمختلف الوسائل.

كذلك الحال بالنسبة لشخصية «الكسندر فوت» وأعماله التي حظيت بعناية خاصة من جانب المؤلفين الغربيين الذين تناولوا أعمال الشبكة السوفياتية في سويسرا سواء من حيث تخصيص حيز كبير نسبياً لأعماله في عدد كبير من كتب الجاسوسية أو وصفهم له بأكمل الصفات (كان استاذاً في الجاسوسية ويتمتع بالصفات اللازمة للجاسوس الناجح وبقدرة فائقة على العمل المتواصل ـ يعتبر جاسوساً ممتازاً من الطبقة الأولى، يحسن التصرف والتفكير ولديه مقدرة كبيرة على استخلاص النتائج ومراعاة إجراءات الأمن. . .).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الشأن هو هل يرجع السبب الأساسي في ذلك الى تمتعه بالجنسية البريطانية وعدم تورطه في عمل مضاد لبلاده أو لأي من حلفائها؟ أم أن تلك الصفات التي أسبغوها عليه تجد لها أساساً من الواقع والحقيقة؟.

لا شك أن التتبع السواعي لما كتب عن أعمال وشخصية «فوت» وتفاصيل التجائه الى السلطات البريطانية بعد انتهاء الحرب، يوضح أن الاتجاه الذي سار فيه الكتاب الغربيون يجد تفسيراً له في كلا الأمرين معاً، أي أنه كان بالفعل من الجواسيس السوفيات الذين يعتمد عليهم. وإن عدم

تورطه في أي عمل ضد أمن بلاده كان له أيضاً أثره الواضح في أن تتسم الصورة التي أعطيت له بهذا الكمال والا يقلل من قيمة بعض الأعمال التي قام بها كما حدث بالنسبة لأشخاص آخرين (المان ـ فرنسيين ـ أمريكيين).

وقد كان الساتر الذي اتخذه فوت لتغطية حقيقة نشاطه هو شخصية رجل أعمال انجليزي متيسر الحال مقيم بسويسرا لا يجيد سوى الراحة والاستجمام وقد انحصر العمل الرئيسي الذي قام به في تحويل الرسائل العادية التي ترسلها الشبكة الى موسكو الى أخرى مشفرة ثم إرسال معظمها عن طريق جهاز اللاسلكي الذي يخفيه في مسكنه، وفي تدريب عملاء الشبكة الجدد، والحصول على معلومات من بعض المصادر. وقد نجح «فوت» الى حد كبير في مراعاة القواعد الأساسية للشخصية التي تقمصها الى الدرجة التي أدهشت كل من اتصل بهم أو تعامل معهم من سويسريين أو أجانب بعد الإعلان عن حقيقة نشاطه بواسطة سلطات الأمن السويسرية. كما نجح في أن يكون عامل اللاسلكي الأول بالنسبة للشبكة رغم وجود جهازين آخرين للإرسال (أرسل نحو ستة آلاف رسالة الى موسكو). وقبل أن نتعرض لإنجازات الشبكة وتأثيرها على تغيير مجرى الحرب لصالح الاتحاد السوفياتي، هناك جانب هام يجدر التعرض اليه بالمناقشة والتحليل وهو موقف السلطات السويسرية من نشاط الشبكة. ويثار حول طبيعة هذا الموقف في الواقع كثير من التساؤلات كما تتسم بعض جوانبه بالتناقض. فيلاحظ أن بعض المصادر الغربية ترجح العامل الأساسي في نجاح الشبكة الى الخدمات التي قدمتها السلطات السويسرية لها (إمدادها بمعلومات كثيرة عن طريق روسلر ـ غض النظر عن نشاطها داخل أراضيها لفترة طويلة نسبياً) ويتفق في هذا الرأي كل من دافيد دالن ورونالد سيث. الى أن هذا الاتجاه اذا كان واقعياً في بعض جوانبه إلا أنه يبالغ في تصوير المساعدات السويسرية للشبكة السوفياتية وفي تقليل الامكانيات الحقيقية لأجهزة المخابرات السوفياتية التي أثبتت كفاءتها وقدرتها على العمل في دول وظروف عجزت أكفأ الأجهزة الأخرى عن العمل فيها (شبكة سورج مثلاً). كذلك نشأت التناقضات المشار اليها من

موقف كل من السلطات العسكرية بقيادة الجنرال جيسان (القائد الأعلى للجيش السويسري والذي كان له دور بارز في الشؤون الداخلية والخارجية لبلاده طوال فترة الحرب) وسلطات الأمن الداخلية تجاه نشاط الشبكة. فبينما كان جيسان وزملاؤه يسمحون لها بحرية العمل ويمدونها في نفس الوقت بمعلومات وافرة عن القوات الالمانية بطريق غير مباشرة وللأسباب السابق شرحها، سعت الأخرى في إطار ممارسة نشاطها العادي الى محاولة الكشف عن حقيقة نشاط الشبكة السوفياتية والقبض على أعضائها، ويمكن إلقاء بعض الضوء على أسباب هذا التناقض بالنظر الى:

- تطرق عمل الشبكة الى الشؤون الداخلية والخارجية الخاصة بسويسرا وعدم اقتصار نشاطها على ما يتعلق بألمانيا فقط مما دفع أجهزة الأمن الى التحرك للقبض على أعضائها.

- إلحاح المسؤولين بسفارة المانيا ببرن على هذه الأجهزة للقيام بذلك وتقديمهم لكثيرٍ من الأدلة التي تثبت إدانة أعضاء الشبكة (كتاب الشيفرة الذي يستخدمونه مثلاً).

- التنافس القائم بين أجهزة مقاومة الجاسوسية التابعة لكل من المخابرات الحربية السويسرية وأجهزة الأمن الأخرى والذي دفع الأخيرة الى المبادرة باكتشاف نشاط الشبكة دون التنسيق مع المخابرات الحربية.

بعد كل ذلك يمكننا التطرق الى الانجازات التي حققتها هذه الشبكة على مختلف الصعد والمجالات. واذا كانت الشبكة السوفياتية باليابان قد نجحت في الحيلولة دون هزيمة السوفيات أمام المانيا، والمساهمة في تحقيق الانتصار النهائي في الحرب، فإن انجازات الشبكة السوفياتية بسويسرا قد جعلت من هذا الانتصار حقيقة واقعة، واذا تصورنا أن القادة العسكريين لدولة ما على دراية كاملة بمعظم الخطط التكتيكية والاستراتيجية لقوات الدولة المتحاربة ضدهم، فإننا يمكن أن ندرك قيمة وشمول المعلومات التي حصلت عليها الشبكة السويسرية ومدى استفادة القوات السوفياتية بها، وسنقتصر

للتدليل على ذلك بالإشارة الى أهم الانجازات التي حققتها:

أولاً: ابلاغ موسكو بالتاريخ المحدد لغزو المانيا للأراضي السوفياتية (٢٢ حزيران/يونيو١٩٤١).

ثانياً: معرفة الكثير من الخطط الاستراتيجية والتكتيكية للقيادة الالمانية العليا.

ثالثاً: الحصول على معلومات تفصيلية عن قوة وتشكيل وتحركات القوات الالمانية بأسلحتها الثلاثة الرئيسية.

رابعاً: الإسراع بتلبية الاحتياجات العاجلة التي ترسلها المخابرات السوفياتية عن بعض الشؤون المحددة الى جانب ذلك، لم يقل نشاط أحد أكبر الجواسيس الروس في سويسرا عن نشاط تلك الشبكة السوفياتية هناك وهذا الجاسوس هو «ليف مويزيوفيتش باكاريوف».

وكان باكاريوف هذا قد تدرب في معهد «براخوفكا» ويدير شبكة جاسوسية ناجحة في سويسرا وبالتحديد في جنيف وبال وبرن مدعياً أنه رجل أعمال نمساوي. وكان مجال عمله في «المخابرات الدبلوماسية والحكومية». وقد زود موسكو بمعلومات سرية ذات قيمة كبيرة لمندوبي الكرملين في المؤتمرات الدولية. وقد ورد ذكره في مجلة «البريد الدبلوماسي» الروسية التي امتدحت بشكل مباشر الجاسوس المقيم في سويسرا اذ قالت: «وردت معلومات من جنيف مكنت المندوب السوفياتي في الأمم المتحدة من أن يفضح خطط اعتداء سرية يعدها الاميركيون».

وهكذا يتضح أن «الحياد» لا مكان له في قاموس الجاسوسية حتى ولو كان في عاصمة الحياد ذاتها في سويسرا. وعندما نجد في هذا العصر بأن دول عدم الانحياز قد أثبتت انحيازها، فإننا ندرك بكل ثقة بأن المخابرات والجاسوسية وخصوصاً الجاسوسية السوفياتية تتواجد في كل مكان وتتجسّس حتى على «الهواء» وليس من بقعة في الأرض محرمة على هكذا مخابرات.

وطالما تتجسس على أعداء الانسانية ولمصلحة الانسان فنحن معها.

المراجع

١ ـ د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تـاريخ. ص ٥١ ـ ٥٨.

٢ ـ ح. برنارد هاتون. «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسـة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

٣ ـ «كبار جواسيس الحرب العالمية الثانية» بإشراف ألبير دي مـازيير بـالتعاون مع جان مارسيياك ولويس غارّوس. جنيف ١٩٧٨ (باللغة الفرنسية).

المخابرات السوفياتية
تتغلغل في استراليا وبلجيكا

لم تقتصر الجاسوسية السوفياتية على «تقمص الشخصية» وحدها، بل لجأت الى ما هو أهم من ذلك بكثير، حيث وصلت الى عملية «تقمص» المدن والمقاطعات والدول بكاملها، عبر مؤسسات اختصاصية في هذا المضمار. وتأتي مدارسّ «غاكزينا» و«براخوفكا» و«ستيابنايا» على رأس هذه المؤسسات. إلا أن المؤسسة الاختصاصية المعروفة بغاكزينا هي التي حازت على قصب السبق وفاقت في أهميتها كل المؤسسات والمدارس التي أخذت على عاتقها مسؤولية تخريج جواسيس المستقبل.

تقع مدرسة غاكزينا على بعد بضع مئات من الأميال جنوبي شرقي كويبتشيف وتبلغ مساحة أرضها (٤٢٥) ميلاً مربعاً. ولا يحق لأحد أن يقترب من غاكزينا ما لم يكن لديه رخصة من قبل الاستخبارات السرية، اذ أن المنطقة بكاملها تحرسها وحدات الاستخبارات السرية التي تعزل المنطقة بكاملها لمسافة ٣٠ ميلاً. كما أن هذه المدرسة لا تظهر على أية خريطة لدرجة أنها غير موجودة بالنسبة للشعب الروسي وغيره من شعوب العالم.

ينقل جواسيس هذه المدرسة بواسطة طائرات وزارة الداخلية الخاصة، اليها، ليتلقوا تدريباً اختصاصياً لمدة عشر سنوات، وذلك بهدف أساسي يتمثل بالخدمة في الخارج، عبر معايشة جو أجنبي غريب عنهم طوال هذه المدة، لكي يسهل عليهم العمل والحياة في البلدان التي تتكلم اللغة الانكليزية، بعد أن يكون دماغهم قد تعود تعوداً تاماً على الشخصية الجديدة التي

تقمصوها خلال تدريب العشر سنوات. من هذا القبيل، كانت الجاسوسية السوفياتية في استراليا، والتي تلاعبت بأعصابها كما يتلاعب العازف بأوتار عوده. وكذلك الحال في بلجيكا عبر شبكة «الأوركسترا الحمراء».

فما هو سر التجسس السوفياتي في استراليا وبلجيكا؟ وماذا كانت أهميته؟.

ففي شهر ابريل من عام ١٩٥٤، هرب موظف الشيفرة في السفارة السوفياتية في سيدني بأستراليا «فلاديمير بتروف» مع زوجته «يفدوكيا» بعد أن حررهم رجال الأمن الاستراليين من قبضة المرافقين الروس. وقد فضح بتروف وزوجته شبكة التجسس الروسية مما أدى الى توقف نشاط مخابراتها. وقد استمر عدد من الجواسيس المستقلين غير المرتبطين بالسفارة الروسية في الاتصال اللاسلكي بموسكو وتزويدها بالأفلام والرسائل المكتوبة بالشيفرة، لكن البون كان واسعاً ولم تعد المعلومات الواردة من استراليا مفصلة ودورية كما كانت من قبل.

صممت موسكو على ملء الفراغ الذي أحدثه «فلاديمير بتروف» وزوجته .فاتخذت إجراءات سريعة لإنشاء شبكة جديدة وقوية. كانت بحاجة الى سرعة فائقة لأن توسع منطقة ويميدا «السريع كمركز للصواريخ الموجهة وللأبحاث النووية»، اقتضى إرسال جواسيس من الدرجة الأولى في الحال.

أرسل جواسيس مدربون في «معهد غاكزينا» الى استراليا ولكن هؤلاء وجدوا أنه من الصعب تنظيم شبكة جاسوسية على أسس متينة، لأن الجاسوسية المضادة في استراليا أصبحت حذرة وتشك في أي وجه جديد يأتي الى المنطقة. وقد فهمت موسكو هذه الصعوبات، فأمرت جواسيسها بتجميد نشاطهم حتى تهدأ الأمور. ويظهر من تقارير المخابرات الروسية أن بعضاً من الجواسيس الجدد في استراليا اضطروا الى البقاء وبدون نشاط مدة تتراوح بين ثلاثة وتسعة أشهر قبل أن يجرؤوا على البدء بالعمل من جديد.

وبـالرغم من أن هؤلاء الجـواسيس الذين اضـطروا الى التخلي عن أي نشاط تجسسي كانوا مزودين بالمال الكافي، فقد بحثوا عن وظائف للتغـطية، مـدركين أن شخصاً يملك مـالاً ومعظم أوقـاته فـارغة لابـد وأن يلفت الأنـظار اليه. وقد تكلم هؤلاء بـالتفصيل عن الـظروف الاستثنائيـة التي تؤخر النشـاط العام في تقاريرهم الى موسكو.

كـان من بين الجواسيس الجـدد في استراليـا فتاة تـدعى «ريتا اليـوت» استطاعت بعد ثلاثة أشهر أن توجد تغطية كاملة لعملها.

اختارت القيادة العامة للمخـابرات في مـوسكو لهـا هويـة «ريتا اليـوت» لأنهـا بعد أن بحثت ودققت في جميـع الاحتمالات بـالتفصيل قـررت أن هذه الهوية «كاملة». الاسم الحقيقي لريتـا اليوت هـو «اسفير غـريغوريفنـا يورين» المولودة في موسكو عام ١٩٢٣. وكان والدها غريغوري ايفانوفتش يورين فناناً انضم عنـد بلوغه الثـلاثين الى «سيرك الـدولـة» في مـوسكـو. وكـانت لاعبـة «ترابيز» شهيرة. كانت «اسفير» عضواً نشيطاً في الحزب الشيوعي. وسرعان ما لاحظ المسؤولـون عنها أنهـا صالحـة للعمل في السلك الخـارجي، فأرسلت عام ١٩٤٣ للتدريب الخاص، ودخلت معهد غاكزينا عام ١٩٤٥ حيث سميت «ريتا اليوت» وسجلت تحت رقم ٩ - ٤٥٠١١٠/ ٢١٥ - ج.

شجعها مدرسوها هناك على تعلم شتى فنون الرقص والألعاب البهلوانية لتصبح هذه المهنة تغطية كاملة لعملها في المستقبل.

وفي غاكزينا تعلمت «ريتا» فن السيـر على حبل مشـدود قليل الانحنـاء على علو مرتفع. ورغم أن «ريتا» قضت وقتاً طويلاً في تطوير فنهـا البهلواني، فقد حازت أيضاً على العلاقات في الحقول الأخرى. وكانت التقـارير الـدورية المـرسلة الى القيادة العـامة للمخـابرات في مـوسكو تقـول عنها: ... لهـذه الطالبة مؤهلات عدة، لا فقط في حقل اللغات ولكن في شتى فروع المعرفة. انها تملك جميع طاقات الجاسوسية. ولا شك أنها ستصبح موضع تقـديرنـا في عملها في المستقبل...

ان تـطورها في اللغـات والتأقلم لا مثيـل له. فبعـد أربعـة عشـر شهـراً تتكلم وتتصـرف وكأنهـا قد ولـدت في البلد الذي سـوف ترسـل اليه. ويجمع أساتذتها على أن لهجتها كاملة. . .

وعندما حان موعـد الامتحانـات النهائيـة فازت ريتـا فيها بتفـوق. وبعد بضعة أيام استلم «قسم النقل» أمَر ترحيلها الى استراليا.

تسللت «ريتـا اليـوت» الـى استـراليا فـي أواخر اكتوبر عـام ١٩٥٥ وتـوجهت الى «اديليـد» حيث مكثت مـدة ثمـانيـة أيـام لتعتـاد على محيـطهـا الجـديد. ثم انتقلت الى «ملبـورن» حيث عليهـا أن تمضي بضعـة أسـابيـع. وكـانت قصة التغـطية أنهـا آتية للبحث عن وظيفة، وأن فـرص الحصـول على وظيفة أحسـن منها في «ملبـورن» مما هي في «اديليـد». وكانت تحمـل عنوان بيت محترم يسكنه الفنانون.

بعـد أن تعـرفت ريتـا على «ملبـورن» لمـدة أسبـوع، وجـدت مكتبـاً للتوظيف. وكتبت الى رؤسائها عن هذه الفترة قائلة: «سجلت طلب الوظيفة. وقد أخذ لي مـوعد لأعـرض «نمرتي» وأعجب بي فـوقعنا عـرضاً وقـالوا أنهم واثقون من أني سأبدأ العمل قريباً».

كتبت ريتا في تقريرها التـالي الى موسكـو تقول أنهـا بدأت العمـل في ملبورن وقد قوبلت بالاستحسان وقادها عملها الفني الى «سيـدني» و«كاميـرا» والمدن الاستراليـة الرئيسيـة الأخرى، فـاستقرت وعـاودت نشاطهـا التجسسي الذي بدأتـه في ملبورن. وبمـا أنها كـانت من أمهر جـاسوسـات المخابـرات الروسية، فقد استطاعت أن تنشيء شبكة جاسـوسية في مدة قصيرة. وأخـذت ترسل التقارير بواسطة جهاز لاسلكي صغير الحجم. وبعثت بعـدة أفلام لـوثائق سرية وبعدد لا يحصى من التقارير المكتوبة بالشيفرة.

كانت ريتا تطبق تعاليم معهد «غاكزينا» في عملها التجسسي الواسع في مجال المعلومات النووية والسـرية. وكـان مساعـدوها يعـرفونهـا على موظفي

الحكومة وكبار الشخصيات الذين يملكون معلومات أكيدة عما يجري في منطقة «ويميدا» ومراكز الأبحاث التابعة لها باعتبارها منطقة الصواريخ الموجهة ومراكز الأبحاث النووية.

وكانت طريقتها في استخراج المعلومات من أشخاص لا يتفوهون بها في الأحوال العادية رهيبة مما يجعلها جديرة بأن نذكر نقلاً عن تقرير للمخابرات الروسية حول الموضوع... كانت تستميل الرجال اليها بجمالها الخارق. وبعد أن يتناولون المشروب معها، كانوا يقبلون دعوتها لهم للذهاب الى شقتها. وهناك كانت تقدم لهم مشروباً ممزوجاً بمخدر خاص يفقد الانسان سيطرته على نفسه. ثم كانت تنوم الرجل تنويماً مغناطيسياً وتوحي اليه بأن يقدم تقريراً عن عمله لرئيسه. ثم تسأله أسئلة دقيقة وتسجل جميع ما يقوله.

ان الأهمية القصوى لهذه الطريقة تكمن في أن ريتا تأمر الرجل النائم ـ قبل إعادته الى وعيه ـ أن ينسى كل ما قال ويتذكر فقط أنهما كانا يشربان معاً.

وبالرغم من حذر ريتا وبعد نظرها، فإنها لم تفلت من الجاسوسية المضادة في استراليا. فقد لوحظ أنها تعاشر عدداً كبيراً من موظفي الحكومة، ومن الشخصيات الكبيرة المرتبطة بشكل أو بآخر بالأبحاث النووية السرية. وقد أظهر التحقيق أن هؤلاء الرجال أكدوا أن علاقتهم بها كانت اجتماعية وخاصة. وأكد كل واحد تقرير الآخر بقوله أن الفتاة لم تذكر له شيئاً عن السياسة أو عن الأبحاث العلمية، بل كانت تريد أن تقضي وقتاً طيباً.

وكان في استراليا جاسوس تابع للمخابرات السوفياتية مهمته مراقبة نشاط الجواسيس المقيمين والحفاظ على سلامتهم فبلغه أن «ريتا اليوت» قد وضعت تحت المراقبة. فأبلغها وأبلغ موسكو بالأمر بأسرع وقت وعوضاً عن أن تستدعي موسكو الجاسوسة وتثبت بذلك شكوك السلطات الاسترالية، أمرتها بوقف نشاطها التجسسي «في الحال»، وبإبلاغ مساعديها بتجميد نشاطهم حتى إشعار آخر، وبنقل آلات الإرسال والأدوات الفوتوغرافية الى مكان أمين. وطلبت موسكو من ريتا أن تستمر في حياتها كفنانة لكي يظهر

للعيان أن ما من شيء قد تغير. وبالرغم من رجال التحري التابعين للجاسوسية المضادة الاسترالية المتنكرين والذين كانوا يقومون بمراقبة ريتا، فقد تمكنت خريجة معهد «غاكزينا» من الاتصال بالمخبرين وضباط الاتصال والمساعدين الآخرين الذين يعملون معها وبالتخلص من جميع ما يثير الشبهات حولها.

واكتشفت ريتا آلات لاقطة مخيفة في منزلها. ولكنها تصرفت وكأنها تجهل المراقبة عليها. ولم تستطع الجاسوسية المضادة من أن تثبت شيئاً ضدها لكنها قررت الاستمرار في مراقبتها.

ولم تجد موسكو مبرراً لإبقاء ريتا هناك تحت التهديد الدائم باكتشافها فقررت أن توكل الى «ريتا اليوت» ـ الموضوعة تحت المراقبة بسبب الشكوك المؤقتة عليها ـ مسؤوليات أخرى.

ووجدت «الشعبة الثالثة» في القيادة العامة للمخابرات في موسكو الحل للقضية. ففي كانون الثاني/يناير عام ١٩٦١ أرسلت الى «ريتا اليوت» من الهند وباكستان وبلاد أخرى عروضاً «حقيقية» للعمل في كباريهات وملاهي من الدرجة الأولى. فقبلت ريتا وغادرت استراليا في فبراير ١٩٦١، حيث ظهرت في الهند لكنها لم تقم بأي نشاط تجسسي، ثم انتقلت الى الباكستان حيث اختفت أخبارها نهائياً. إلا أن المرجّح فإنها أعطيت اسماً جديداً لتمارس عملها القديم في مكان جديد، ذلك لأن أمثالها قلائل، وباستطاعتها أن تخدم المخابرات السوفياتية في أي بلد انتدبت اليه.

وفي عام ١٩٥٤ أثبتت التحريات التي أجرتها الحكومة الاسترالية أن ثلاثاً من مراسلي تاس في استراليا هم جواسيس. وورد في تقرير حكومي حول هذا الموضوع ما يلي: «ان جميع مراسلي تاس في استراليا أعضاء عاملون في ملاكات الشرطة السرية الروسية. وإن تزويد الشرطة السرية بالمعلومات هي مهمتهم الأولى، ونجدهم من أجل ذلك يمتزجون بحرية بالصحفيين دون إثارة الشكوك».

هذا ما جرى في استراليا. أما في بلجيكا فكانت الجاسوسية الروسية على جانب كبير من الأهمية أيضاً. ويعتبر فرع شبكة «الأوركسترا الحمراء» في بلجيكا من أهم وأكبر فروع الشبكة في الدول الأوروبية. وقد عاصر في أولى مراحل انشائه تنفيذ الخطة السوفياتية الخاصة بالحصول على المعلومات المختلفة عن بريطانيا حيث اتخذت بلجيكا مقراً رئيسياً للنشاط الموجه اليها نظراً لموقعها الجغرافي القريب منها. كما تميز هذا الفرع أيضاً باستمرار نشاط أعضائه لفترة طويلة نسبياً بالمقارنة مع الفروع الأخرى وتجدد نشاطه رغم القبض على كثير من أعضائه. ومما ساعد على ذلك عدم تشدد القوانين البلجيكية الخاصة بالجاسوسية (قبل احتلالها من قبل المانيا) حيث لم تكن تنص على أي عقاب بحق الجاسوس إلا اذا كانت أعماله موجهة ضد بلجيكا نفسها. هذا فضلاً عن تمتع كثير من الشركات (ومنها تلك التي أنشأتها الشبكة) بالتسهيلات الخاصة بالاتصال البرقي أو التليفوني أو الشخصي بالدول الأوروبية المختلفة.

انحصر الساتر الأساسي الذي اتخذه أعضاء الشبكة في بلجيكا في النشاط التجاري، حيث قام «ليوبولد تريبار» بالتعاون مع زملائه بإنشاء شركة سيمكسكو للتصدير والاستيراد (وهي تختلف عن شركة سيمكس ـ في فرنسا) كما تم أيضاً استغلال احدى الشركات التي تتولى صنع الملابس الواقية من المطر في خدمة أهداف الشبكة وتسخير كافة مرافقها لتحقيق هذه الأهداف فضلاً عن إقامة فروع لها في عدد كبير من الدول الأوروبية (المانيا ـ السويد ـ النروج ـ الدنمارك) ونظراً لرغبة الشبكة في الحيلولة دون إثارة الشبهات حول حقيقة نشاط هذه الشركة لم تقم بتعيين مديرها العام من أعضائها بل تم تعيين شخص آخر هو «جولس جاسيار» والذي كان يتمتع بماض نظيف ومركز اجتماعي مرموق، كما لم تكن له أية ميول شيوعية (كان أخوه رئيساً لحكومة بلجيكا ـ عمل قنصلاً لبلاده في الهند الصينية والسويد والنروج).

هذا وقد لعب بعض الشخصيات الهامة دوراً رئيسياً في تسيير هذا

النشاط وتحقيق الأهداف المحددة وهم على الوجه التالي:

فيكتور سوكولوف:

وهو طيار سوفياتي سابق. اشترك في الحرب الأهلية الاسبانية وكان يعتبر الساعد الأيمن للمدير المقيم. وهو الذي قام بإنشاء شركة سيمكسكو بالتعاون مع باقي أعضاء الشبكة وتولى تجنيد بعض العملاء وتنفيذ بعض العمليات في فرنسا والمانيا، وقد هبط في الأخيرة «بالبرا شوت» وقام بإعادة تنظيم فرع شبكة «الأوركسترا الحمراء» هناك وتدريب أعضائها على الإرسال اللاسلكي. وكان سوكولوف يعتبر عامل اللاسلكي الأول بالنسبة لكافة فروع الشبكة حيث تولى إرسال كثير من الرسائل عن طريق جهازه الذي كان يخفيه في مقر إقامته. ولا شك أن تعدد الأسماء الكودية التي كان يستخدمها بصورة واضحة (فنسان سبيرا ـ ادوارد كنت ـ كارلوس الامو ـ جورفيتش...) يشير الى أهمية الدور الذي قام به في الشبكة.

ليون جروشفوجيل:

وهو احد رجال الأعمال البلجيكيين. يهودي الديانة وكان معادياً للنازية وقد اعتنق المبادىء الشيوعية وكان من أهم مساعدي تريبار في بلجيكا وقد قام بمعاونته في تسخير شركة الملابس التي يملكها في خدمة كافة أهداف الشبكة والإشراف على كافة أعمال التجسس التي تتم في نطاق الشركة والقيام بتنفيذ بعض العمليات المتعلقة بها في فرنسا. هذا فضلاً عن إعداد وتنظيم الأسماء الكودية والوظائف الوهمية الخاصة بأعضاء الشبكة

كونستانتين يفراموف:

تولى رئاسة الشبكة في بلجيكا بعد القبض على معظم أعضائها (باستثناء تريبار وسوكولوف) وقد تمكن من تسيير شؤونها لمدة ستة أشهر

متخذاً من الدراسة في جامعة بلجيكا ستاراً له.

وهكذا قامت الشبكة عن طريق الشركتين المذكورتين وباقي عملائها بممارسة نشاطها لتحقيق أهدافها المحددة وذلك على النحو التالي:

أولاً: اشتراك شركة سيمكسكو في تنفيذ بعض المشروعات الخاصة بالقوات الالمانية في بلجيكا مما مكنها من الحصول على المعلومات الفنية الخاصة بها والمعلومات الأخرى المتعلقة بهذه المشروعات.

ثانياً: تعاون الشركة مع بعض المؤسسات الالمانية في بلجيكا وبصفة خاصة منظمة تودت التي تعمل في مجال المنشآت الحربية، وذلك بهدف التسلل الى داخلها ومعرفة تفاصيل المشروعات التي تقوم بتنفيذها.

ثالثاً: قيام المسؤولين عن هذه الشركة بدعوة القادة الالمان الموجودين في بروكسل،من بينهم القائد العام الى حفلات الاستقبال والعشاء التي تقيمها بصفة دائمة لهذا الغرض وتوفير سبل الراحة وكافة التسهيلات اللازمة لهم (خمور ـ نساء جميلات..) الأمر الذي حقق للشبكة فضلاً عن المعلومات التي حصلت عليها من الثرثرة المعتادة في مثل هذه الظروف، تحويل أنظار أجهزة مقاومة التجسس عن الشركة لفترة طويلة نسبياً.

رابعاً: استقبال شركة الملابس وسيمكسكو للمعلومات المختلفة الواردة من فروعهما في الدول الأوروبية وإعدادها للإرسال الى موسكو. فضلاً عن توجيه عملائها في هذه الفروع والتنسيق بين نشاطهم.

خامساً: تجنيد عشرة عملاء ممن يعملون في الأجهزة الالمانية والبلجيكية الحيوية والحصول عن طريقهم على معلومات هامة في المجالات التي يعملون فيها.

سادساً: تجنيد احدى البولنديات اليهود في الشبكة وهي (صوفي بوزانسكا) وتكليفها بعد التأكد من اتجاهاتها المؤيدة للشيوعية والمعادية للنازية بتشفير الرسائل التي تبعث الى موسكو. وقد أثبتت هذه العميلة أنها

على مستوى المسؤولية وتفوق في إخلاصها لمبادئها وللشبكة المدير المقيم نفسه وكثيراً من الأعضاء الآخرين، حيث فضلت الانتحار على الإدلاء بأسرار الشيفرة السوفياتية الى المخابرات الالمانية عندما ألقي القبض عليها.

بعد كل ذلك، يثبت السوفيات عبر جاسوسيتهم المتطورة بأنهم كالهواء يتواجدون في كل مكان يسكنه بنو البشر. وأينما كان هناك انسان، يعني أن هناك حياة وانتاجاً واختراعات، وطبيعي أن تكون الجاسوسية السوفياتية قد وجدت لها موطىء قدم في أهم مفصل حيوي فيها. ومن هنا قال «يوركي راستفوروف» الموظف السابق في السفارة الروسية في طوكيو أن ما من مواطن سوفياتي يغادر حدود روسيا بصفته الشخصية. فليس ثمة سواح سوفيات.. وحيثما كان ثمة مواطنون روس في السفارات والقنصليات والبعثات التجارية والثقافية وحتى في الفرق الرياضية، فإنهم يكونون عملاء سريين.

المراجع

١ ـ د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٤٢ ـ ٤٥.

٢ ـ ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. بيروت ١٩٦٣. ص ١٥٩ ـ ١٦٦ و٢٢١.



«النسر» وتغلغل المخابرات السوفياتية في نخاع السويد (١)

اهتز العالم عندما سمع لأول مرة بانتصار ثورة اكتوبر في روسيا عام ١٩١٧ بقيادة فلاديمير ايليتش لينين، باعتبارها أول ثورة اشتراكية في العالم. وكم ازداد هذا الخوف فيما بعد عندما بدأ نجم هذه الثورة يلمع ويبرق، متجاوزاً حدود الاتحاد السوفياتي الى ما هو أبعد بكثير. . . الى كل تلك المناطق والأصقاع التي ترزح شعوبها تحت نير الظلم والاضطهاد والاستغلال والاستعمار.

إزاء ذلك، أصبحت مقاومة هذا التيار ضرورة حتمية، كي لا تنتقل عدوى هذه الحركة التحررية الى كل بقعة تتوق الى الحرية والاستقلال.

ومـا أكثر هؤلاء الأعداء في الواقع، حيث لم يتركوا وسيلة إلا واستخدموها من أجل هدف مركزي يتمثل بتشويه صورة الاتحاد السوفياتي وثورته، وصولاً الى ما يضمن المحافظة على مواقعهم. . ومصالحهم الاستعمارية الكبيرة في المستعمرات والبلدان التابعة، وبالتالي ايقاف هذا المد الثوري، التحرري الذي يهدد العالم بانتفاضات وتمردات تقض مضاجع المعسكر الرأسمالي الاستعماري. . . ولم يخرج «أعداء الداخل» عن أهداف «أعداء الخارج» في هذا المضمار، حتى ولو كانوا يحملون الجنسية الروسية، على الرغم من قلة عددهم. وقد وصل الأمر بأحد هؤلاء، وهو «يوري راسفوروف» الموظف السابق في السفارة السوفياتية في طوكيو الذي اختار الحرية ـ كما قالت الدوائر الغربية ـ حيث قال: «ان المواطن السوفياتي لا يترك

حدود الاتحاد السوفياتي بمهمة فردية ولا بصفته الشخصية، وليس ثمة سواح سوفيات. وحيثما كان ثمة مواطنون روس في السفارات والقنصليات والبعثات التجارية والثقافية وحتى في الفرق الرياضية، فإنهم جميعاً جواسيس وعملاء سرّيين».

واذا علم «يوري راسفوروف» أن أكبر جواسيس السوفيات في بلد جميل كالسويد، لا يحمل جنسية سوفياتية ولا ينتمي لأية سفارة من سفاراتها ولا لأية قنصلية وبعثة من بعثاتها المختلفة فماذا سيكون موقفه اذن؟ ومن منطلق الدفاع عن الحقيقة، باعتبارنا لسنا بمحامي دفاع عن السوفيات ولا عن جاسوسيتهم، لأنهم ليسوا بحاجة الى مدافعة، فإنه يتوجب علينا أن نشير الى حقيقة الجاسوسية الروسية في السويد التي تلقي أضواء كاشفة على دقة العمل المخابراتي السوفياتي، وتنسف.. بالتالي زيف كل الاتهامات التي يرشقها الأعداء بموسكو والكرملين

فما هي قصة التجسس السوفياتي في السويد؟ ومن هو بطل هذه القصة؟ وكيف تمكن جهاز الاستخبارات الروسي من التغلغل في نخاع هذه الدولة المشهورة بروعتها وجمالها؟.

يعتبر الكولونيل «ستيغ فنرستروم» من أمهر الجواسيس وأعظمهم في السويد والذين قدموا خدمات جلى الى المعسكر الاشتراكي عامة، والاتحاد السوفياتي على وجه الخصوص.

ففي صباح ٢٠ يونيو ١٩٦٣ كان رجل طويل القامة يجتاز بخطوات واسعة جسراً في وسط ستوكهولم عندما اعترض طريقه فجأة ثلاثة من رجال الشرطة السرية، فقدم أحدهم نفسه بلطف ثم قال أنه مكلف بالقبض عليه، فلم يعترض الرجل، بل تبع رجال الشرطة السرية في هدوء حتى سيارتهم الواقفة على مقربة من المكان. وهكذا وبطريقة سريعة وهادئة انتهت القصة المثيرة للعقيد فنرستروم، وهو من أنجح الجواسيس الذين استخدمهم السوفيات منذ بداية الحرب الباردة.

هز السويد نبأ القبض على «ستيغ فنرستروم» ولم تبالغ العناوين المثيرة لصحف ستوكهولم حين قالت:

«أكبر فضيحة للجاسوسية شهدتها السويد ـ عقيد سويدي يبيع أسراراً خطيرة بقيمة لا تقدر. عقيد سويدي كان يعمل لحساب الروس»، بلغت موجة الصدمة لندن وواشنطن لأن العقيد تاجر بأعمال الجاسوسية بالجملة وباع أسراراً عسكرية لا تتعلق بالسويد فحسب وإنما بانكلترا والولايات المتحدة وبحلف الأطلسي أيضاً. واعترف في النهاية أنه ارتكب مئة وستين عملاً (١٦٠) من أعمال الجاسوسية ضد السويد، ومن بين هذه الأعمال أنه باع للروس أسرار الدفاع الجوي السويدي والتصميمات التفصيلية لإحداث الطائرات السويدية ومعلومات عن الصواريخ البريطانية والاميركية. وقدرت المحكمة التي حكمت عليه بالسجن مدى الحياة أنه تقاضى من مؤجريه السوفيات ما يقرب من خمسمائة ألف كورون.

وقد أثار توقيفه شكوك ستوكهولم وواشنطن. فقد كان فنرستروم وزوجته محبوبين ومعروفين في حفلات الكوكتيل، وكانت الزوجة «اولا جريتا كارلسون» على شيء من الخفة وفاتنة الى حد بعيد. أما العقيد الذي يبلغ من العمر ٥٦ سنة فقد كان متحفظاً ولكنه كان ذا حديث جذاب. كانت النساء يجدنه ساحراً. كان رياضيّ البنية وذا وجه ناعم، قسماته واضحة، غير متغضنة، يحتفظ بنضرة الشباب رغم تقدم العمر.

وسرعان ما أثارت قضية فنرستروم جدالاً سياسياً في السويد. فقد تساءلت المعارضة عن كيفية استطاعة ضابط عظيم أن يواصل عمليات التجسس وعلى نطاق واسع طوال هذه المدة دون أن، ينكشف أمره؟ ولم يكن أقل من ذلك غرابة كيف استطاع رجل له ماض نظيف كفنرستروم أن يصبح خائناً. وأين تكمن نقطة الضعف؟.

لم يكن فنرستروم، على ما يظهر، من الذين تفكر مصلحة الاستخبارات السوفياتية في أن تستخدمه كجاسوس. فهو لم يكن يبدو أبداً أنه

يعطف على اليسار المتطرف، لم يكن يعرض نفسه للتشهير بسهولة لأنه لم يكن من المصابين بشذوذ جنسي أو المقامرين أو زير نساء. فقد أجمع الناس على أنه ظل شديد التعلق بزوجته التي تزوجها من ٢٤ سنة، وبإبنتيه اللتين بلغتا من العمر حين توقيفه ٢١ و١٧ سنة.

وميزته الوحيدة ـ إن صح التعبير ـ أنه كان سويدياً معتدلاً عديم الشأن. كان قنوعاً زاهداً في الأكل والشرب، وكانت رياضته المفضلة هي الجولف واللعب على الثلج، كما كان يحب أن، يلعب البريدج، ولم يكن موسيقياً ولم يكن يهتم قط بالفنون. وربما أحب كثرة التردد على الحفلات ولكن سلوكه كان سليماً لا مأخذ عليه.

وحتى أن أصدقاءه لم يتوصلوا، إلا بعد فوات الأوان، أن يتذكروا كلمة واحدة كشفت بدقة عن شيء ما. ففي مأدبة عشاء دعي اليها، ألقى أحد الضيوف كلمة أشاد فيها باللغة الفرنسية، فرد فنرستروم قائلاً: «ينبغي رؤية الأشياء كما هي: خلال بضع سنوات لن تبقى هناك لغات ذات أهمية عالمية إلا لغة ونصف لغة، ستكون الانكليزية هي نصف اللغة وستكون الروسية هي اللغة السائدة».

لم ينشر هذا التعليق حينئذ، أي ظل من الشك، ولكن مثل هذه الصراحة من فنرستروم، كان أمراً نادراً. فقد اعتاد بصورة عامة أن يتجنب الدخول في أية مناقشة تتعلق بالسياسة أو الشؤون الخارجية.

كانت دماثة خلقه تخفي وراءها شخصية غامضة الى حد لا يرتاب فيه أي انسان باستثناء، سادته الروس. وبعد اعتقاله ظلت الشرطة تستجوبه لعدة شهور، وقام أخصائي اجتماعي باستجواب ما يقرب من عشرين شخصاً من أقاربه وأصدقائه لمحاولة كشف الأسباب الخفية التي دفعته الى الخيانة. فلا هذا التحقيق ولا ذلك الذي قمت به شخصياً ـ يقول ايروين روس ـ في واشنطن وستوكهولم أتاحا لي اختراق الواجهة التي كانت تحميه.

إن أمراً واحداً قد وضح وهو أن فنرستروم كان رجلاً متكبراً جداً،

ويتحرق لأن يلعب دوراً أكبر مما تسمح به وسائله، وقد بدا له أن «التجسس لحساب دولة كبيرة» هو مغامرة مثيرة يعد نفسه لأن يلعب فيها دوراً أولياً، وقد غذى الروس أنانيته بمهارة.

ولد فنرستروم في ٢٢ آب/أغسطس سنة ١٩٠٦ في أسرة ضباط. وكان صبياً خجولاً منطوياً على نفسه، ولم يكن له في طفولته غير أصدقاء صادقين قليلين. وكان يبدو أنه لم يكن على علاقة طيبة مع أبيه الذي كان رجلاً متباعداً ومتحفظاً،بينما كانت علاقاته بأمه أكثر حباً، وكان بعض أصدقائه ينظرون اليه باعتباره رجلاً جباناً كدجاجة مبللة، ولذا أصابتهم الدهشة عندما رأوه قد انخرط في السلك العسكري.

ورغب دائماً منذ ذلك التاريخ في تحسين وضعه. فعندما كان غيره من الضباط الشباب يجتمعون معاً في المساء للهو، كان فنرستروم يلزم غرفته ليواصل دراسته للغة الروسية. لقد قرر أن يتعلم اللغة الروسية ـ كما قال للمحققين ـ لأنه كان يعتقد أن هذه اللغة قد تفيده يوماً ما في المستقبل.

وبعد أن تدرب في البحرية انتقل الى السلاح الجوي بعد قليل من عام ١٩٣٠. وفي شتاء ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ منحته وزارة الدفاع زيارة مجانية لإتقان اللغة الروسية. وخلال هذه الزيارة لـ «ريجا» تيقظ اهتمامه بالجاسوسية، حيث كانت «ريجا» عاصمة ليتوانيا المستقلة ورمز «اصغاء» مشهور جداً على الحدود السوفياتية، والمدينة تكتظ بالجواسيس و«باعة مواسير المعلومات» والدبلوماسين والعملاء المزدوجين. وقد تعرف فنرستروم على الحياة المثيرة لهذا العالم الذي يخيم عليه الظلال والغموض عندما تعرف على عميل بريطاني تحدث اليه بصراحة عن عمله وكان تعارفهما مبعثة المصادفة وتبادل الحديث ولكن البذرة كانت قد غرست. وفي «ريجا» أيضاً تذوق فنرستروم طعم معاشرة المجتمع الدبلوماسي.. فلقد استقبل في حفلات بعض السفارات وقد ذكر خلال التحقيق: «أنه نجح تماماً في هذا النوع من الحياة الاجتماعية». ولقد كان يتحين الفرص دائماً لأن يغشى المجتمع.

وفي عام ١٩٣٩ ، بعد عودته من «ريجا» تزوج فنرستروم من «اولا جريتا كارلسون» ابنة رجل ثري يشغل منصباً رفيعاً في جريدة تصدر في ستوكهولم. وكانت «اولا» تصغر زوجها بثلاثة عشر عاماً وتحبه الى درجة العبادة فخضعت لسيطرته. وما انفكت تدعي منذ اعتقاله أنها كانت تجهل دائماً نشاطاته في الجاسوسية. وفي عام ١٩٤٠ كان قد أرسل فنرستروم الى موسكو كملحق عسكري لا سيما بسبب معرفته التامة للغة الروسية. وكان ميثاق التحالف الالماني ـ السوفياتي لا يزال قائماً في ذلك الوقت، ولكن العلاقات أخذت تزداد توتراً بين المتحالفين.

وأقام فنرستروم اتصالات مع أقرانه من السفارات الأخرى وبصورة خاصة مع الألمان. وربما كانت علاقاته ككثير من العسكريين السويديين في هذه المرحلة من الحرب، أكثر توثقاً مع المانيا، وعلى كل حال فإن هناك أمراً واحداً أكيداً لا شك فيه: هو أنه لم يكن يجد أي وازع أخلاقي يمنعه من أن يقدم للنازيين كافة المعلومات التي استطاع جمعها عن الاتحاد السوفياتي خلال عمله. وقدر الالمان خدماته فسهلوا له الحصول على الروبلات من السوق السوداء. وبعد عودته الى السويد في مارس ١٩٤٠ ، ظل فنرستروم على علاقاته الودية مع السفارة الالمانية. وفي عام ١٩٤٣ اكتشفت مصلحة المخابرات السويدية رموز الشيفرة الالمانية ووجدت اسم العقيد مذكوراً في برقيات مرسلة الى برلين من السفارة الالمانية باعتباره مصدراً للمعلومات. وعلى أثر ذلك راقبت السلطات السويدية اتصالاته الهاتفية ولكنها لم تكتشف على ما يبدو شيئاً يدينه أكثر من ذلك. وفي تشرين الأول/اكتوبر ١٩٤٣ ، نقل فنرستروم الى قاعدة «ساتيناس» الجوية على الساحل الغربي من السويد. وبعد مضي عامين نقل الى منصب عسكري في ستوكهولم حيث كانت اتصالاته الهامة مع الاميركيين والروس، وغالباً ما كان فنرستروم يعمل كمرافق ومترجم للضباط السوفيات عندما يأتون الى السويد لزيارة بعض المنشآت الجوية.

وقد أنجز أول عمل تجسسي لحساب السوفيات في أواخر عام ١٩٤٨ ،

اذ علم فنرستروم أن، الكولونيل «ايفان بتروفيتش ريباشنكو» الملحق الجوي السوفياتي في ستوكهولم يظهر اهتماماً بقاعدة جوية جديدة في إنسويد، فعرض عليه فنرستروم هذا الاقتراح:

«اذا كانت هذه القاعدة الجوية لها مثل هذه الأهمية لك فإن بإمكاني أن أقول لك ما أعرفه عنها مقابل (٥٠٠٠) خمسة آلاف كورون». وبدت الدهشة واضحة على ريباشنكو ثم أجابه بأنه سينظر في الأمر. وبعد بضعة أسابيع تقابل الرجلان في حفلة كوكتيل دبلوماسية. وبينما هما. . يتصافحان تمتم ريباشنكو: اتفقنا.

وتقابلا للمرة الثانية في احدى المناسبات الاجتماعية، وبعدها ذهب الروسي بفنرستروم الى منزله، وأعطاه، وهما يفترقان، رزمة تحتوي على المبلغ المتفق عليه. وتسلم فيما بعد خريطة تحدد مكان القاعدة الجوية. ويصرح فنرستروم بأن السبب الذي دفعه الى القيام بهذه العملية كان رغبته في التسلل الى شبكات الجاسوسية الروسية لإفادة الولايات المتحدة الاميركية منها. وهو يصر على أن اتصالاته الأولى بالمخابرات الاميركية تعود الى عام ١٩٤٦ حيث فاجأ أحد العملاء الاميركيين في ذلك الوقت بأن أسر اليه بأن اسم فنرستروم وجد في سجلات شبكة التجسس الالمانية خلال سني الحرب.

واقترح هذا العميل أنه ما دام قد عمل سابقاً لصالح الالمان ضد الروس أن يقبل بالتعاون مع الاميركيين. فوافق فنرستروم، وكانت المهمة التي اقترحت عليه متواضعة وهي أنه عندما دعي رسمياً لحضور عرض جوي في موسكو أن يرسل بالبريد أثناء مزوره بلنينغراد طرداً يعتقد فنرستروم أنه كان يحتوي على صمامات جهاز راديو.

ويقول فنرستروم أنه مضت سنتان قبل أن يتصل مرة أخرى بالمخابرات الاميركية. وفي هذه المرة حدثه أحد العملاء الاميركيين مطولاً عن أساليب التجسس وخاصة عن أساليب ـ العميل المزدوج ـ ان هذا الموضوع أغرى

فنرستروم الى درجة جعلته يقرر أن يصبح هو نفسه عميلاً مزدوجاً على الرغم من أن العميل الاميركي لم يقترح عليه أن ينطلق بهذه المغامرة. وكبداية لذلك عرض هو خدماته على العقيد ريباشنكو الروسي.

ان السلطات الاميركية نفت بشدة أن يكون فنرستروم قد عمل لحساب مخابراتها، وعدا ذلك فإن قصة الجاسوس لا تقوم على أساس. لماذا اقترح عليه الاميركيون عام ١٩٤٦ مهمة صغيرة كإرسال طرد من لنينغراد سيما وأنهم لم يطلبوا منه شيئاً خلال السنتين التاليتين؟ أما ادعاءه في أنه اندفع في العمالة المزدوجة بدون حافز، ففيه شطط في حسن الظن بالناس.

والتفسير الأكثر قبولاً هو أنه استسلم للإغراء الذي أتاح له الحصول بسهولة على الخمسة آلاف كورون. فإنه لم يكن طوال مدة اشتغاله بالتجسس عديم الاكتراث بالمال. وقد يكون له أيضاً حافز آخر. ففي عام ١٩٤٨ عندما كان برتبة مقدم، أبلغ بأنه لن يرفع الى رتبة قائد اسطول جوي كان يعلل نفسه بها، وعرض عليه بدلاً من ذلك أن يوفد الى موسكو كملحق جوي.

وكان عدم حصوله على رتبة قائد اسطول جوي معناه أنه فقد الى الأبد أمله في تجاوز رتبة عقيد. فأصيب فنرستروم بخيبة مريرة ولعله قد وجد متعة في نوع من الانتقام في كل مرة يبيع فيها سراً عسكرياً سويدياً. ولكن فنرستروم عندما سلم الخريطة المذكورة الى ريباشنكو قد وافق على الاستمرار بالاتصال بمصالح المخابرات السوفياتية بعد وصوله الى موسكو وقد تسلم عمله كملحق جوي في ٢٧ يناير ١٩٤٩ وبقي فيه طيلة ثلاث سنوات.

وقد برهن الروس في معاملتهم لهذا الرجل عن مهارة نفسية فائقة. فاستغلوا الخيبة التي يبديها على الصعيد المسلكي واستثاروا غروره ودعموا في كل مناسبة الفكرة العالمية التي يحملها عن نفسه.

أما كيف استغل السوفيات الكولونيل «ستيغ فنرستروم» وجعلوا منه عميلاً «من الدرجة الأولى» بعد أن فتحوا له رصيداً غير محدود، ومنحوه لقب «النسر» الاصطلاحي، ورتبة «لواء» التي لم يكن له أي حظ في الحصول عليها في خدمة السويد؟.

هذا ما سنذكره بالتفصيل في القسم الثاني من هذه الدراسة.

النسر وتغلغل المخابرات السوفياتية
في نخاع السويد (٢)

ليست معـرفة الحـروب والمعارك وأبـطالها من اختصـاص العسكـريين وحدهم، وإنما هي معرفة أو هـواية لأكثـر الناس في كـل زمان ومكان. اذ لم يخـل عصـر من العصـور التـاريخيـة دون أن تكـون الحـروب والمعـارك من المحطات البارزة في سجل أحداثه الطويل. كما أن البطل لا يعتبر ابن وطنه، ولا فتى عصـره فحسب، وإنما هـو ابن الجماهيـر في العالم كله وفتى جميـع العصور. والذين تألقت أسماؤهم ودوت شهـرتهم قبل عشـرات ومئات السنين استمر تألقهم وشهرتـهم عبر الـزمان والمكـان دليل صـدق على تقديـر النبوغ وشاهد اثبات على احترام البطولة.

وعندما أثبتت تجـارب التاريـخ بأن البـطولة لا تـظهر فقط في الحـروب والمعارك، وكثيراً ما تتجلى في أعمال الجاسوسيـة والمخابرات، فإننـا نستطيـع تصنيف بعض الأشخاص الذين نجحـوا في ممارسـة هذه المهنـة وخاصـة في إطار خدمة الشعوب الضعيفة ومصلحتها، نستطيع تصنيفهم في عـداد الأبطال. وكـان من بين هؤلاء بالـطبع الكـولونيـل ستيغ فنـرسـتـروم-جـاسـوس الاتحـاد السوفياتي في السويد.

لقد أحسنت الاستخبارات السوفياتية في التقاتها «للمفتاح» الذي دخلت بواسطته الى إحراز النجاح الكبير في تجنيد فنرستروم لصالح موسكو، بعد أن اكتشفت الثغـرة التي تحكم من خلالهـا قبضتهـا على جميـع مـا تحـوزه من أسرار.

ولقد برهن الروس فعلاً في معاملتهم لهذا الرجل عن مهارة نفسية فائقة عبر استغلالهم الخيبة التي يبديها على الصعيد المسلكي واستثاروا غروره ودعموا في كل مناسبة الفكرة العالمية التي يحملها عن نفسه.

ولم يطل الأمر حتى جعلوا منه عميلاً «من الدرجة الأولى» وفتحوا له رصيداً غير محدود ومنحوه لقب «النسر» الاصطلاحي ورتبة «لواء» التي لم يكن له أي حظ في الحصول عليها في خدمة السويد.

وعندما تسلم فنرستروم عمله كملحق جوي سويدي في موسكو بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٤٩ كانت المخابرات السوفياتية قد تغلغلت في جميع شرايينه وحتى في نخاعه الشوكي.

ففي موسكو عهد الى فنرستروم أن يتصل بضابط من مرتبة الأمراء عرفه باسم «بيوتر بافلوفتش ليمينوف» وتأثر فنرستروم تأثيراً عظيماً بليمينوف الذي وصفه السويدي بأنه رجل «ذو مقدرة» تكاد تكون مغناطيسية على استمالة مساعديه اليه.

وعني ليمينوف بفنرستروم عناية خاصة وظل نقطة الاتصال الوحيدة بينه وبين مصالح المخابرات السوفياتية حتى النهاية.

وعندما غادر فنرستروم الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٥٢ بقي الرجلان علي اتصال عن طريق المراسلة، حيث كانت مراسلاتهما فريدة من نوعها في تاريخ الجاسوسية، لأن السويدي يؤكد أنه كان يكتب الى ليمينوف عن أخبار عائلته ويحدثه عن جولاته في المجتمع وعن كل همومه وشجونه. كان ليمينوف الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يثق به الى درجة جعلت العقيد نفسه يعترف بأنه عرف فيه أفضل صديق.

وقد التقط فنرستروم خلال اقامته في موسكو كافة الايضاحات الممكنة عن الدفاع الجوي البريطاني الذي كان يعتبره الروس أفضل دفاع في العالم. وبفضل اتصالاته بسفارة الولايات المتحدة كما يقول، استطاع أن يقدم

للروس بعض المعلومات التي كان الاميركيون يجمعونها عن الأهداف في الأراضي السوفياتية.

وخلال الشهور التي سبقت سفره من موسكو عرف فنرستروم أن منصبه التالي سيكون في واشنطن، حيث لن يعمل كملحق جوي فقط بل سيشترك أيضاً في شراء تجهيزات أميركية للطيران السويدي. وقد سر اللواء ليمينوف سروراً عظيماً بذلك حيث كان لديه عدد كبير من مهام معينة ليعهد بها الى فنرستروم في الولايات المتحدة أهمها الحصول على معلومات تكتيكية عن آخر التطورات الاميركية فيما يتعلق بالطائرات والصواريخ ومصوبات القصف والراديو والرادار والأجهزة الالكترونية الصغيرة.

وعلى الرغم من أن فنرستروم وصل الى واشنطن في ٨ ابريل ١٩٥٢ فإنه لم يستقبل زميله السوفياتي اللواء فيكتور كوفينوف إلا في أغسطس، حيث زاره في السفارة السويدية وأعطاه كلمة السر وهي «نيكولا فاسيليفيتش يرجوك أن تتذكره» ثم أعطاه ورقة ذكر فيها مكان لقائهما القادم. كان اللواء ككل من جاء بعده من ضباط الارتباط السوفيات الآخرين ينظم اتصاله - الذي يبدو مصادفة - مع فنرستروم في حديقة عامة أو في شارع وسط المدينة.

وفي كل مرة كان الرجلان يتظاهران بالدهشة لهذه المصادفة ويتصافحان ثم يسيران معاً بضعة خطوات. وكان فنرستروم الذي صور كافة الوثائق التي يريد تسليمها على فيلم مصغر - ميكروفيلم - يسلم لفيفة الفيلم الى كوفينوف أثناء المصافحة بينهما باليد. وكان يتخذ من سفارة السوفيات أيضاً ميداناً لعمليات التسليم وذلك خلال الاستقبالات الدبلوماسية الكبيرة. فكان فنرستروم يترك الأفلام في جيب معطفه الخارجي بغرفة المعاطف حيث يأتي كوفينوف لتفريغ هذا الجيب على مهل.

وقد تسلم فنرستروم مبلغ خمسة آلاف دولار - كدفعة أولى - وبلغ متوسط ما دفعه له مستخدموه السوفيات كما يقول خلال السنوات الخمس التي قضاها في واشنطن ٧٥٠ دولار شهرياً. وكان يحرص على عدم تبذير

المال هنا وهناك. وكانت تودع في حساب مفتوح باسمه في موسكو مبالغ إضافية يمني نفسه بالانتفاع منها حين إحالته على المعاش. ولم يحدد أبداً الرقم الذي بلغته هذه المدخرات.

وبعد القبض على فنرستروم حاولت المخابرات الاميركية أن تعيد بناء مجده الغابر. وتزعم وزارة الخارجية أنها لا تعرف ما هي المعلومات التي نقلها فنرستروم الى الروس. وصرح روبرت مكنمارا وزير الدفاع أن نشاط الجاسوس السويدي لم يكن ذا شأن فيما يتعلق «بالأسلحةالجارية الاستعمال». ولكنه من الممكن «أن يكون تلقى بعض المعلومات التي تتعلق بتصميم المعدات العسكرية الاميركية» وهذا أمر كثير الاحتمال لأن السويد كانت تشتري تجهيزات من الولايات المتحدة بمقتضى برنامج المعونة العسكرية وقد اعتادت وزارة الدفاع الاميركية أن تثق بالملحقين العسكريين السويديين.

ان سنوات ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ تمثل ذروة النشاط التجسسي الذي قام به فنرستروم. فبعد عودته الى ستوكهولم عين رئيساً لقسم القوات الجوية في قيادة الدفاع. وكانت تحال اليه بصورة روتينية في كل يوم كافة أنواع الوثائق السرية: خطط العمليات ومعلومات عن المنشآت والأسلحة الحديثة وأجهزة الدفاع الجوي. وكان مكلفاً عدا ذلك بأن يبلغ وزير الدفاع عن الصواريخ الموجهة. وقد أتاح له هذا الأمر أن يتوصل الى الوثائق السرية الواردة من الولايات المتحدة ـ وربما بسهولة أكثر منها في واشنطن ورغماً عن الرقابة فقد أمكن لفنرستروم بالاستناد الى محضر وتصريحات الأوساط السويدية الكثيرة الاطلاع أن يحصل على فكرة عن مدى الأسرار العسكرية المسلمة الى الروس خلال هذه الفترة. فقد أفشى فنرستروم كل أسرار الدفاع الجوي السويدي، وهو نظام نصف تلقائي يضم الرادار والحاسبات الالكترونية التي تسجل طريق وسرعة أي طائرة مهاجمة. كما باع معلومات تتعلق بالمطاردات المضادة من نوع دريكن ج ـ ٣٥ التي صنعت في السويد، كما زودهم أيضاً بتفصيلات فنية عن ـ فيجن ـ الحديثة، هذه الطائرة التي تفوق سرعتها سرعة

الصوت ويمكن أن تلعب دور مقاتلة أو قاذفة قنابل أو طـائرة استـطلاعية والتي كان يجب اعتبارها في النهاية دعامة طيران القتال السويدي.

واعتبـاراً من سنة ١٩٥٩ بـدأت السويـد في الحصول على الصـواريـخ الاميركية من نوع «سايدوندر» وهي قذيفة صاروخية تـطلق من الجو الى الجـو وتسبق سرعة الصوت وتسلح بها طائرات ـ دريكن ـ وصواريخ فـالكون ـ وهي قذيفة صاروخية أكبر حجماً تطلق من الجو الى الجو وصواريـخ ـ هوك ـ وهي تطلق من الأرض الى الجو في لحـظة الدفـاع ضد الـطائرات المهـاجمة التي تطير على ارتفاع منخفض.

واشترى السويديون أيضاً صواريخ بريطانية من نوع ـ بلود هاونـد ـ وهي قذيفة صاروخية تطلق من الأرض الى الجو على ارتفاع شاهق.

وقـد أرسل فنـرستروم الى مـوسكو معلومـات سـريـة عن كـل من هـذه الأسلحة، كما زود الروس زيادة على ذلـك في كل مـرة يستطيعهـا بمعلومات عن النشاطات التي يقوم بها حلف الأطلسي مثل تعزيـز القوات الاميـركية في البحر الأبيض المتوسط ابان أزمة السـويس ووضع «الخـطة الفوريـة» لمواجهـة التهـديد السـوفياتي لبـرلين الغربيـة. وفي نهايـة ١٩٥٩ علمت مصلحة الأمن السـويدي بأن فنرستروم أثار الشكوك بين بعض زملائـه بفضولـه الجشع حيـال وثائق سرية تبدو أنهـا تتعلق قط بعمله. وحصل «اوتـو دانيلسون» مـدير الأمن العام على اذن بمراقبة محادثات الكولونيل فنرستروم الهاتفية، كمـا وضعه هـو نفسه أيضاً تحت المراقبة بصورة متقطعة.

ولكن فنرستروم كان شديد الحذر جداً من أن يخاطر بنفسه في محـادثة هاتفية ويبدو أنه كان يتمتع بحـاسة سـادسة أشعـرته بـوجود الشرطة. فقـد مر دانيلسون ذات يوم وهو يركب سيارة جديدة من طراز مـرسيدس بشـارع صغير هادىء في الضاحية التي يقيم فيها الجـاسوس، وكـان هذا الأخيـر جالسـاً في سيارته الخاصة فاستدار بسيـارته على الـطريق وتبع سيـارة الشرطـة اذ بدا من الواضح أنه لاحظ انها سيارة غريبة في هذه الأنحاء.

وكانت الأدلة عن حالة فنرستروم المالية غير قاطعة أيضاً. فقد أنفق زيادة على دخله حوالي ١٧٥٠٠ كورون في عام ١٩٦٠ وستة آلاف كورون في عام ١٩٦١، ولكنه يحتمل أن والدي زوجته الغنيين كانا يساعدانه مالياً. وعلى الرغم من أنه لا يمكن توجيه أية تهمة اليه فإن الشرطة قد اهتمت اهتماماً كافياً لتحول دون تعيينه في منصب يمكنه من التجسس. وكان من المقرر أن يحال على التقاعد في يونيو ١٩٦١ ولكن كثيراً ما يتولى الضابط الذي يحال على التقاعد في السويد عملاً مكتبياً في مؤسسة عسكرية لزيادة معاشه. وقد تقدم فنرستروم في شهر مارس بطلب لتعيينه في عمل تقاعدي في هيئة أركان حرب القوات الجوية، وهو العمل الذي سيشغله بعد يونيو ١٩٦١ والذي سيساعده للوصول الى كل الوثائق السرية المتعلقة بالسلاح الجوي. ولكن وزارة الدفاع رفضت تعيينه في هذا المنصب بناء على عدم موافقة الأمن العام.

وقد وجد في النهاية عملاً في وزارة الخارجية وعين فيها كمستشار لشؤون نزع السلاح للإشتراك في الأعمال التحضيرية لمؤتمر نزع السلاح في جنيف، لأن المحاذير أقل لهذا المنصب بالنسبة لرجل تحوم حوله بعض الشكوك.

كان هذا القرار هو الأول في سلسلة من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها الإدارة. وقد أبلغ وزير الخارجية السويدية «اوستن اوندن» بالشكوك التي تحيط بفنرستروم. ولكن الشرطة خوفاً من تسرب شيء من هذا الموضوع رفضت أن يذكر ذلك لأي شخص آخر في وزارة الخارجية فلم يعد اذن من الممكن مراقبة فنرستروم في عمله الجديد.

وما كاد يستقر فنرستروم في هذا العمل حتى بدأ يقوم بزيارة زملائه القدامى في السلاح الجوي ويسألهم عن معلومات سرية. وكان يشرح لهم أنه يحتاج اليها للإستعانة بها في عمله كخبير في شؤون نزع السلاح. وكان يحصل غالباً على المعلومات التي يريدها. وفي يوليو ١٩٦٢ بذلت أخيراً

محاولة لتحديد اطلاع فنرستروم على الوثـائق السريـة بحيث ينبغي أن يمر في المستقبـل كـل طلب من هـذا النـوع عن طـريق رئيس مصلحـة المخـابـرات العقيد ـ بوفستين ـ ولكن هنـا حدثت فـوضى جديـدة اذ أن أحداً لم يبلغ هـذا الأمر الى مصلحة النشر والمطبوعات في الدفاع الـوطني حيث دأب فنرستـروم على جمع المعلومات السرية بحرية تامة.

ومع ذلك لم يكن لدى الشرطـة أي دليل قـوي ضده. كـان لديـه جهاز لاسلكي ذو موجات قصيرة. غير أن ابنة فنرستروم الصغرى أبلغت ذلك للشرطة بصورة عفوية عندما ذكرت في محـادثة هـاتفية أن والـدها يملك أغـرب جهاز راديو في العالم، لا يستقبل إلا الاتحاد السوفياتي فقط.

وكان يمكن للشرطة أن تحصل على مذكرة بتفتيش منزله، ولكنهـا كانت تخشى ألا تكتشف شيئاً فتضيع القضية كلها. ولذا عمل دانيلسون وزملاؤه في مايو١٩٦٣ على الاتصال مع السيدة كـارين روزين وهي خادمـة تعتني بتدبيـر منزل أسرة فنـرستروم لتشغيلهـا كمخبرة سـرية. فقبلت أن تتعـاون معهم بكل طيبة خاطر. ولو سبق للشرطة أن استعانت بها لأمكنها الظفر قبل ذلك بعام.

لقد ساورت الشكوك منذ وقت طويل، هـذه السيدة الهـادئة وهي امـرأة في الخمسين من عمرها بسبب التجهيـزات الغريبـة التي يمتلكها وهي حـامل كبير تتدلى فوقه صمامات كهربائية وجهاز تصوير، افترضت بحق أنه يستخـدم في تصـوير وثائق، وصندوق حـديدي مخبأ خلف ستـارة في حجـرة المخزن، وجهاز راديو لم تـر مثله في حياتهـا مثبت داخل مكتبـه. وأوضحت السيدة أن الكولونيل فنرستـروم كان يحتبس نفسـه بعد أن يقفـل عليه بـالمفتاح سـاعات طويلة للتصوير في الحجرة.

وبعـد ذلك بشهـر تقريبـاً اتصلت السيدة روزين في صبـاح أحد الأيـام بـالشرطـة هـاتفيـاً تبلغهـا أنهـا عثـرت على رزمتَين غـريبتين تحت نشـارة من الخشب في غـرفة المؤونـة العلويـة حيث اكتشفت فيهمـا لفـائف من الأفلام. وأخيراً حصلت الشرطة على الدلائل التي تساعدها على التـدخل. وفي اليـوم

التالي كان فنرستروم قد أوقف

حدث الأمر في حينه اذ أن الكولونيل الجاسوس كان يتهيأ للهرب من البلاد وقد أنذره حادث طفيف وقع أثناء حفلة استقبال في السفارة البريطانية. فقد اقترب فنرستروم ببشاشة من اللواء «نورستن راب» القائد العام للقوات السويدية المسلحة الذي يعرفه منذ وقت طويل، ولكن «راب» عبس في وجهه وخاف فنرستروم فجأة من أن يكون اللواء قد شك بأمره. ولم يخطيء ظنه بذلك.

وبعد القبض عليه زعم الكولونيل فنرستروم في البداية أنه عضو في جمعية سرية تعارض النظام الحاضر في الاتحاد السوفياتي. ثم أكد أنه كان يتجسس ضد الولايات المتحدة وليس ضد السويد. ولما لم تنجح هذه المزاعم انتقل الى الاعترافات. وخلال الأشهر الأربعة الأولى من التحقيق معه ظل يتظاهر بموقف مليء بالوقار.

ولكن هذا الموقف ما لبث أن انهار في شهر اكتوبر عندما حاول أن ينتحر بابتلاع جرعة مميتة من الحبوب المنومة. ولو أنه نجح في ذلك لحصلت زوجته على معاش لأنه لم يكن قد أدين بعد، وقد أثبت الفحص النفسي أنه سليم العقل تماماً رغم انهياره العصبي. وبعد عدة أسابيع من العلاج النفسي السريع استعاد توازنه واستأنفت الشرطة التحقيق معه وقام معظم التحقيق بصورة عامة على عرض الوثائق السرية على المتهم وسؤاله عما اذا كان قد نقلها الى الاتحاد السوفياتي. وفنرستروم لم يطلب الرحمة من المحكمة. وقال في لهجة لا تخلو من بعض الزهو والصلف: «ان نشاطي كان جزءاً من الجاسوسية العالمية التي تقوم بين الدول الكبرى والذي هو نفسه عامل من عوامل الحرب الباردة» ثم أعلن قائلاً: «انني على استعداد لتحمل النتائج القضائية لأعمالي».

وكان من الممكن أن تكون هذه النتائج أشد سوءاً في بعض البلاد الأخرى. ولكن في السويد البلد الانساني فإن الحكم بالسجن المؤبد الذي

صدر بحقه يعني الإفراج عنه بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة من سجنه اذا سلك سلوكاً حسناً. ومع ذلك فقد أعلن اللواء راب بأنه ينبغي صرف ٢٩٥ مليون كورون لإصلاح الضرر الذي ألحقه بنظام البلاد الدفاعي.

ويقول ايروين روس بهذا الصدد: كنت في ستوكهولم في يوليو ١٩٦٤ بعد شهر من صدور الحكم عليه. وكانت الأوساط الحكومية لا تزال بعد تحت وطأة هذه القضية. وكان أقوى عتاب يمكن توجيهه الى المسؤولين أنها عينت فنرستروم في وزارة الخارجية على الرغم من الشكوك التي كانت لا تزال تثار حوله عندما كان في وزارة الدفاع. وهناك أمر لا يمكن تفسيره مطلقاً وهو أن نعتقد بأننا مجبرون على الاحتفاظ به بعد إحالته على المعاش في وظائف رسمية جسيمة المسؤوليات كهذه. والأمر الوحيد الذي يمكن تفسيره أن قليلاً جداً من الموظفين كانوا يؤيدون الشكوك التي ثارت حوله.

وفي رأيهم أن العقيد كان زميلاً جديراً بالاحترام فكيف يمكن لهم أن يصدقوا أن جندياً قضى حياة حفلت كلها بخدمات رفيعة يمكن أن يخون بلاده؟ ومن الواضح أن الحكومة السويدية قد عالجت هذه القضية على أعلى صعيدها الرسمي بعدم اكتراث يصعب فهمه. ففي مطلع ابريل ١٩٦٢ بعد أربعة عشر شهراً تقريباً من القبض على فنرستروم جرى الاتفاق مع وزير العدل بأن يطلع المدعي العام فيرنر راينجر رئيس الوزراء السويدي «تاج ايرلاندر» على القضية. ولكن راينجر أصيب بمرض وتأجلت المقابلة الى ١٣ ابريل. وفي هذا اليوم انشغل رئيس الوزراء الى حد حال دون استقبال المدعي العام ولم يحاول أحد أن يعيد التجربة فيثير قضية فنرستروم مرة أخرى.

وبعد قليل من توقيف الكولونيل اضطر رئيس الوزراء الى أن يصرح: يا للأسف انني لم أتلق أبداً ما يوحي بأن الأمر يتعلق بقضية هامة جداً.

وفي موضوع الجاسوسية يبدو أن كافة البلاد تحتاج الى هزة كبيرة لتفقد سذاجتها. فلم يعتقل في السويد خلال فترة ما بعد الحرب إلا جواسيس من

مستوى صغير لم يكن لديهم غير مصادر محدودة للمعلومات. وقد كانت قضية فنرستروم درساً خطيراً للسويد كما كانت قضية «هيس» للولايات المتحدة قبلها.

وأثبت الاتحاد السوفياتي عبر تجربته التجسسية بأنه قادر في كل لحظة على أن يشعر الولايات المتحدة الاميركية ودول حلف شمالي الأطلسي بأجمعها على أنها لا تستطيع التنفس إلا الهواء الذي يسمح لها به الاتحاد السوفياتي لرئتيها. وعدا ذلك فإنها مهددة بخطر الاختناق اذا مارس عليها الروس عملية «حظر الهواء».

ويبدو أن ذلك أصبح الهاجس الكبير لدول المعسكر الامبريالي كله.

المراجع

١ ـ ج. برنارد هاتون. «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ٧ و٢٠٧ و٢٢٠.

٢ ـ مجلة «الشرطة» السورية (تصدر عن دائرة الشرطة في القطر العربي السوري).

المخابرات السوفياتية
تتغلغل في نخاع اسرائيل

إن الـذين يتنقلون على رؤوس أصابعهم، غيـر الذين يضـربون الأرض بـأقدامهم الثقيلة ومن يـظن نفسه منـزّهاً عن الخـطأ والاختراق، سـرعان ما يكتشف بأنه قد نُخر حتى العظم، وتغلغلت المخابرات في شرايينه تماماً كما يتغلغل الدم.

والملاحظ أن الاستخبارات السوفياتيـة هي التي احترفت هـذا النوع من التغلغـل، وكان لهـا قصب السبق في هذا المضمـار، ليس في نخاع أميـركـا وبريطانيا فحسب، وإنما في نخاع اسرائيل، التي تدّعي بأنها «دولة لا تقهر».

فكيف تمكن السوفيات من التغلغل في نخاع اسرائيل؟ وكيف كان ذلك؟.

يعتبر «اسرائيـل بير» خبيـر الشؤون العسكريـة وأقرب المقـربين الى بن غوريون ورئيس قسم العمليات والتخطيط في مقر قيادة الجيش... بـطل هذه العملية ومخرجها.

ولقد امتعض «اسرائيل بير» أو «ببكـة» كما لقبـه الناس أشـد الامتعاض لاستدعاء «ايسر هرئيل» له، فقد كانت الرسالة التي تسلّمها منـه فظّة غليـظة: «تعال الى مكتبي». وكان «بير» الذي اشتهر بأنـه خبير في الشؤون العسكـرية وواحـد من أقـرب المقـربين الى بن غـوريـون شخصيـة بـارزة في الحيـاة الاسرائيلية العامة.

وقـد هاجـر «اسرائيـل بير» هـذا من النمسا الى فلسـطين، وانخرط في

جيش الهاغانا، السرّي، وعمل بتفوّق في الجيش عدة سنوات، وقد ساعدته قدرته الذهنية على التحليل، وما حظي به من تدريب عسكري أكاديمي، على الرقيّ السريع في معارج الجيش، حتى أصبح برتبة كولونيل أخيراً. وفى أثناء «حرب الاستقلال» اختير «اسرائيل بير» لرئاسة قسم العمليات والتخطيط في مقر قيادة الجيش. وكان كثيراً ما يرى بصحبة رئيس الوزراء في المناسبات الرسمية.

وخرج «بير» من الجيش عام ١٩٥٠ ليمتهن السياسة، ولكنه حافظ على اهتمامه بالأمور العسكرية وعلى صلته بها. وكان يحضر اجتماعات رئاسة الأركان البالغة السرّية، ويحصل على ما يشاء من معلومات، وكانت خطط الجيش ومخططاته ووثائق الدفاع ذات الأهمية القصوى تجد سبيلها الى يده. وفي عام ١٩٥٥ طلب منه أن يكتب تاريخاً رسمياً «لحرب الاستقلال»، وخصصت له غرفة في وزارة الدفاع ليقوم بأبحاثه فيها.

وشاعت شهرة «بير» بوصفه خبيراً عسكرياً حتى في خارج اسرائيل، وكان يلقي المحاضرات فيما يتصل بالحرب من موضوعات في العديد من البلدان الأوروبية، ولا سيما في المانيا، التي ترك فيها انطباعاً عميقاً لدى بعض الشخصيات البارزة كالسياسي «فرانتس جوزف شتراوس»... ورئيس جهاز الاستخبارات «راينهاردت غيلهن». وكان «بير» في جولات محاضراته بألمانيا ينبّه جمهور الشبّان المستمعين إليه أشد التنبيه الى واجبهم تجاه وطنهم والى الحاجة لجعل المانيا دولة ديمقراطية قوية في مواجهة «الخطر الشيوعي القادم من الشرق».

واستحوذ بير على إعجاب قيادة حلف شمالي الأطلسي ـ الناتو ـ في أوروبا للتحليلات البارعة التي قدمها عن الاستراتيجية اللازمة في حالة نشوب حرب برية في أوروبا. وقد أثنى عليه موظفو وزارة الدفاع الفرنسية علانية، لتفهمه الواسع المدى لمختلف الشؤون العسكرية.

ولم يكن من المستغرب إذن أن يمتعض «بير» عندما استدعاه ايسر

هرئيل بخشونة ذات مساء من خريف ١٩٦٠، اذ لم يُبْـدِ هرئيـل من الاحترام ما يتفق مع مكانته البارزة.

ولم يقم «بير» بأي جهـد لإخفاء انـزعاجـه عندمـا مشى في مكتب ايسر والسيجـار في فمـه، ثم ألقى نفســه في الكـرسي المقـابـل لمكتب رئيس الموساد، ونفض «بير» الرماد عن سيجاره بنقرة من إبهامـه تدل على الإزدراء، ثم انحنى في كرسيه الى الأمام وقال ببساطة: لنـدخل في صميم المـوضوع، فأنا مستعجل.

وحدّق أيسر الى العينين اللتين لا تطرقان في رأس البـروفسور الأصلع، وكانت جميع ملامح الوجه الزائر، ذي الشارب الأصفر المميز الذي بـدت فيه آثار رماد السيجار تشير الى الاحتقـار الموجـه الى هرئيـل، ولكن هذا لم يكن ممن يفزعون بسهولة، فواصل التحديق الى وجه «بير»، وهو يوجه اليه سؤالين موجزين قصيرين:

لماذا واصلت زيارتك الى برلين الشرقية؟ ولماذا سافرت الى بولندا؟.

وظهر هرئيل بمظهر الدكتاتور الذي يتخذه أحياناً، ورفـع صوتـه قائـلاً: أَلَمْ أحذِّرك قبلاً من الاختلاط بالشيوعيين؟.

وضرب المنضدة التي أمامه بقبضتي يديه بشدة وصاح: إنني أحـذِّرك يا بير، وأمنعك من السفر الى أوروبا.

وعندئذ وثب البـروفسور على قـدميه غـاضباً، فلم يكن أحـد، حتى بن عـوريون نفســه يجرؤ على التحـدث اليه على هـذا النحو، وأجـاب صائحـاً: «اهتم بشؤونك الخاصـة، فسوف أشكـوك الى رئيس الوزراء، بـل سأشكـوك الى الحزب أيضاً». وعندئذ اندفع خارجاً من مكتب هرئيل.

وانقضت عـدة دقائق، ورئيس المـوساد يفكـر في صمت، فقـد كـانت الشكوك تساوره بشأن «اسرائيل بير» عـدة سنوات. كـان هذا قـد كتب سلسلة من المقالات المعادية لأمريكا في أثناء الحـرب الكوريـة، وكان «أيسـر» يعلم

أن «بير»، برغم انضمامه الى حزب بن غوريون (المابـاي) الآن، كان منتمياً فيما مضى الى جماعـة المابـام، وهي الجناح اليسـاري الأكثر تـطرفاً، وكـان للبـروفسور نشـاط قوي في منـاهضة الشيـوعيـة آنـذاك ممـا أدى بـه الى تلك الجمـاعة أخيـراً. ولـم ينضم الى التحالف الحـاكم برئـاسة بن غـوريـون إلا متـأخراً، وأصبـح نهجه الجـديد هـو: «قل يعيش بن غـوريون، ثم افعـل مـا تشاء».

ولم يكن ايسر ليحارب «بير» على انتمائه السياسي، ولكنـه كان يعجب لقدرة الرجل على تغيير انتمائه على ذلك النحو السريع الحاسم.

أما رئيس الموسـاد فلم يكن منتمياً الى أي حـزب ولكنه يعي مـا يعتقده وعياً تاماً، وكانت انتهازية الرجل تثير الشكوك في نفسه.

وبعـد رحيل الخبيـر العسكري المفـاجىء، انزعـج ايسـر الجـالس في مكتبه مرة أخرى لشيء قاله، ألا وهو التحذير الذي وجهه «بيـر» حال مغـادرته بقوله: «سوف أشكوك الى الحزب» فما الذي يقصده بذلك؟ كان بير يعلم أن ايسر لا ينتمي الى أحزاب.

كان للطريقة الـطائشة التي ألقى بهـا «بير» عبـارته الغـريبة الى أيسـر ما لتلك العبارة نفسها من مفاجأة، وبدا ذلك التحذير ارتكاساً ذهنياً وحضاً صادراً عن رجـل اعتـاد تمثيـل شخصيـة المحلل المنـطقي، البعيـدة عن الانفعـال، وإذن، فقـد وثبت الغريـزة من مكمنها، وبـرزت من قناع التعقيـدات الفكريـة التي تميز به «بير».

ومن قبل أحس ايسر بالانزعاج بشأن «بيـر»، كما أحس بضـرورة اطلاع بن غوريون على ذلـك، وقد نقـل اهتمامـه الى رئيس الوزراء. يـظن أن ايسر يصدر في أمره هذا عن غيرة من شهرة «بير» ونفوذه. بيد أن ايسـر لـم يتراجـع لذلك. فذهب في الحال لمقابلة رئيسه وطرح أمامـه جميع الأسبـاب الكامنـة وراء الشكـوك التي تساوره، وقـال: «يقوم «بيـر» منـذ مـدة بجمـع معلومـات

عسكرية لا تتصل به في شيء، وهو يزور المدن الشيوعية في رحلاته الى أوروبا وتربطه صداقة ـ مسرفة ـ مع الدبلوماسيين الروس العاملين في اسرائيل الذين يقابلهم كثيراً».

وقد بدت في حياة «بير» الاجتماعية بعض الجوانب الغريبة مؤخراً، فهو ينفق أموالاً طائلة، تزيد عما يكسب، في ملاهي تل أبيب. وعندما كان في ميونيخ مؤخراً دفع مبلغ ٢٠٠ دولار دون أدنى اهتمام. وقد كان يشتري لنفسه ولعشيقاته، ومنهن من يشك في سلوكهن، ملابس كثيرة غالية الأثمان. أما علاقاته مع زوجته «رفكا» فهي سيئة جداً. وهو يقضي لياليه يعاقر الراح في الحانات، كحانة أتوم ـ في شارع بن يهودا. وكان صوت ايسر مفعماً بالغضب لفساد أخلاق «بير». فهو لم يعرف الانغماس في هذه الرذائل طيلة حياته.

وقال ايسر: من الجلي عندي، أن بير يعاني من اجهاد ما، هو إجهاد العميل الذي يمثل دورين في الحياة، ومنذ وقت قريب تورط في فضيحة عامة: فقد هاجمه زوج إحدى عشيقاته، ووجه إليه لكمات في وجهه، وهشم بعض أسنانه.

وكان بير قد أخبر رئيس الوزراء بأنه فقد تلك الأسنان في حادث سيارة واختار بن غوريون تعليله ذلك على ما قاله أيسر، وبقي راسخاً في عدم الاقتناع بدعاوي ايسر.

ورد بن غوريون بهدوء: «من واجبك أن ترتاب في كل شخص كائناً من كان، أما أنا فثقتي مطلقة بهذا الرجل».

وانتهت المقابلة بينهما بذلك، ولكن المسألة بقيت قائمة لدى ايسر هرئيل، ومن مزايا هذا الرجل أنه لم يكن امّعة عند بن غوريون، ولو كانت شخصيته أضعف من حقيقتها لتحاشى انتقاد أحَد المقربين من رئيس الوزراء، ولكنه اختار الجانب المضاد، فأمر عملاءه بتشديد الرقابة على بير. وأخذ فريق لأعمال التحري ينقب في ماضيه للتأكد من وجود جوانب مريبة، أو

انصاف حقائق في سيرة حياته كما خبر بها أصدقاءه وزملاءه.

كان ايسر يسعى للتحقق من واحد من - تخميناته - المشهورة.

وفي ليل ٢٨/٣/ ١٩٦١، بعد حوالي ثمانية أشهر من المواجهة الدرامية التي تمت بين ايسر هرئيل واسرائيل بير في مكتب الموساد، كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح، وهو واحد من أخصب الأعياد وأحبها الى اليهود، ففيه يحتفلون بالخلاص من ربقة العبودية في مصر، وفي منازل اليهود في جميع أرجاء العالم، تجلس العائلات حول الموائد لتناول - السيدير - وهي وجبة عيد الفصح التقليدية التي تتلى معها حكاية الخلاص.

وفي الساعة الثامنة من ذلك المساء، خرج رجل من شقته الواقعة في ٦٧ شارع برانديس في تل أبيب، وكان المساء دافئاً، ولكن النسيم العليل الذي يهب من البحر الأبيض المتوسط الى الشاطىء حمل ذلك الرجل الى تزرير معطفه، وكانت في يده حقيبة أوراق جلدية. . وأسرع الرجل خطاه في الشارع الخالي من المارة، وهو يتلفت حوله، كما لو أراد التأكد من أن أحداً لا يقتفي خطاه. واستدار الى شارع جانبي وتوقف قليلاً في ظل حجيرة للهاتف، وكان يلهث آنذاك بالرغم من أنه لم يبتعد أكثر من مئتي متر عن شقته التي خرج منها، وتوقف لحظات قليلة لالتقاط أنفاسه، ثم تلفت من حوله مرة أخرى. ولما لم يلحظ أحداً في الجوار انطلق منحدراً في الشارع الى مقهى صغير واقع في أقرب زاوية من زواياه.

وسعد صاحب المقهى الذي كان يجلس وراء الباب بمشاهدة أول زبون يراه في ذلك المساء.وطلب هذا الزبون زجاجة كونياك، ومضى بها الى منضدة في زاوية الحانة، بعيداً عن أضواء الشارع الساطعة، ووضع حقيبة أوراقه الجلدية على مقعد مجاور. ولما حاول صاحب المقهى أن يفتتح مع الزبون محادثة ودية، أجابه هذا إجابة جافة، معبرة عن عدم رغبته في الحديث، ومضى يحتسي الكونياك في صمت. ثم أشعل الرجل سيجارة ونظر بقلق الى ساعته.

وبعد خمس دقائق، دخل رجل آخر المقهى، وكان يرتدي بذلة سوداء قاتمة، وعلى رأسه قبعة ذات حافة عريضة وبعد أن لوّح بيده للزبون الجالس، اقترب منه وجلس على كرسي مقابل له حول المنضدة.

ولم يتبادل الرجلان شيئاً من الحديث، وبعد لحظات من الجلوس نهض الوافد وخرج من المقهى. وفي يده كانت حقيبة أوراق لرجل الآخر.

وبعد ثوان معدودات، نهض الزبون الأول، ودفع ثمن الشراب، وبدون أن ينبس ببنت شفة غادر المقهى، ليلفه الليل، في حين شرع صاحب المقهى في كنسه وتنظيفه. وفي الخارج تلفت الرجل الطويل حوله مرة أخرى، قبل أن يسير نحو منزله، وعاد أدراجه في الطريق الذي جاء فيه، وإن كان صفر اليدين الآن.

وعندما بلغ الرجل الطويل باب المبنى، الذي تقع فيه شقته دخل منه دون أن يكلف نفسه عناء التلفت فيما حوله، كان مطمئناً الى أن أحداً لم يتعقبه. وبعد أن صعد الدرج المؤدي الى شقته دخل فيها واتجه صوب مكتبه، التي تعمر جدرانها كتب من عدة لغات. وهناك جلس يرتقب. منتصف الليل، صوت سيارة يمزق سكون الليل في ذلك الشارع. وعند رقم ٦٧ أوقفت السيارة ونزل منها الرجل الغريب ذو القبعة، وهو الرجل الثاني الذي زار المقهى القريب قبل بضع ساعات. وكانت في يده حقيبة الأوراق التي أخذها من صاحبه. وسار هذا الرجل الى باب المبنى رقم ٦٧، ودخل بدون أن يطرق الباب، ومن الواضح أن قدومه لم يكن مفاجئاً. وإنه لم يتوقع المكوث طويلاً، فقد ترك محرك سيارته بدون توقف.

دق جرس الهاتف في منزل ايسر هرئيل وتناول ايسر السماعة على الفور، فقد كان ينتظر هذه المكالمة، التي عرف فيها صوت واحد من كبار عملائه، ولم يكن من داع للإعتذار عن المكالمة في ليلة العيد تلك:

«جرت مقابلة بين رجلنا، وبين رجل الاتصال الروسي للمرة الثانية في

هذا المساء فقد تقابلا في المقهى الصغير الذي تعرفه، وكان مع رجلنا حقيبة أوراق سلمها الى رجل الاتصال، ثم افترقا.

وقمت بتعقب خطى رجلنا حتى المنزل، وأنا الآن في خارج المكان، وقد دخل الرجل الروسي قبل لحظات ومعه حقيبة الأوراق التي تسلمها في المقهى، وهو مع رجلنا الآن في الداخل».

وكان ايسر بالغ القلق، ولكنه لم يفاجأ بما حدث. فرقم ٦٧ شارع برانديس هو عنوان اقامة اسرائيل بير.

قرر أيسر أن الوقت قد حان ليضرب ضربته. ولكن ينبغي أن يتم كل شيء بطريقة صحيحة وبارعة، فإلقاء القبض على البروفسور الآن وهو متلبس بتسليم الوثائق الى أحد الدبلوماسيين السوفيات الذي عرف عنه أنه أكبر جواسيس روسيا في اسرائيل، سيكون له انعكاسات دولية وربما أدى الى اسقاط حكومة بن غوريون.

وقرر ايسر الانتظار حتى يغادر الدبلوماسي منزل اسرائيل بير واعتقاله. ينبغي أن يتم كل شيء بطريقة قانونية أو الا يحدث البتة.

وبعد أن وضع أيسر سماعة الهاتف رفعها على الفور مرة أخرى واتصل بن غوريون. لم تستغرق محادثتهما أكثر من عشر دقائق، قال فيها ايسر: «سألقي القبض على اسرائيل بير هذه الليلة».

وتردد بن غوريون لحظة ثم قال: «قم بواجبك». وانتهت المحادثة بذلك... كانت الساعة تشير الى منتصف الثالثة في الصباح واسرائيل بير جالس يقرأ في مكتبته، وحقيبة الأوراق ملقاة على المنضدة القريبة، في الموضع الذي تركها فيه بعد مغادرة زائره دون المساس بشيء من محتوياتها. وفجأة سمع طرقة على الباب.

وقبل أن يتمكن من إخفاء الحقيبة، أو حتى النهوض من كرسيه العتيق، انكسر الباب وكانت ضربة ـ معلم ـ وحيدة كافية لخلعه من مفصلاته.

واندفع صف من سبعة رجال في داخل الشقة، ووقفوا من حول بير الذي كان منتصباً متجمداً في كرسيه، وقال له أحدهم بهدوء:

«انك معتقل الآن، ولدينا أمر بتفتيش الشقة».

وشاهد بير الضابط يوجه بصره الى حقيبته، وأجاب بهدوء بتلك الكلمات التي تفوه بها بن غوريون قبل ساعات في المكالمة الهاتفية مع هرئيل: «قم بواجبك».

وكان بير يعلم حق العلم من هو ضابط الاستخبارات المضادة الذي تحدث اليه، فقد كان يعرف اسمه الشخصي منذ عدة سنوات، ولم يزد على أن قال: هل تمانع في أن أدخن؟ كان ضابط الموساد المسؤول عن اعتقال بير يعلم أنه يتعامل مع رجل من أبرز رجالات البلد. فقد كان بير محاضراً في مدرسة الجيش التي يتدرب فيها الضابط، وكان كولونيلاً في الاحتياط ومستشاراً ناصحاً لوزارة الدفاع ورئيس الوزراء نفسه، وقد أحس الحاضرون بالصدمة جميعاً، اذ لم يكن العملاء يصدقون إن الرجل الذي قدموا لاعتقاله إنما كان واحداً من جواسيس السوفيات... ألا يمكن أن يكونوا مخطئين في شأنه؟ لقد كانوا يتمنون ذلك...

بيد أن شكوكهم مهما كان أمرها، سرعان ما تبددت عندما فتح الضابط حقيبة الجلد التي كانت ما تزال ملقاة على المنضدة القريبة من بير. وفي داخل الحقيبة شاهد الضابط عدداً من الوثائق البالغة السرية ومنها قائمة مفصلة لمصانع الأسلحة الكبرى في اسرائيل، وفوق ذلك كله شاهدوا مفكرة بن غوريون الخاصة، التي استعارها البروفسور حين عبر له عن رغبته في كتابة سلسلة من المقالات عن فلسفة بن غوريون في القيادة والحكم، ولم تكن هذه المفكرة تحتوي على أكثر أفكار بن غوريون خصوصية فحسب، بل كانت تحتوي فوق ذلك على عدد من أسرار الدولة التي كان وزراء الحكومة يجهلون بعضاً منها. عندما قدم ايسر هرئيل مفكرة بن غوريون اليه، علق رئيس الوزراء على ذلك متبرماً: «كنت غارقاً في محيط من الأكاذيب».

ومن الواضح الجلي أن الحادث كان أليم الوقع على نفسه. وقد أحجم ايسر عن الإشارة الى أنه أعرب عن ارتيابه من بير في وقت مبكر يعود الى ١٩٥٣. ومن الأمور التي تسجل له ولموشي دايان أن كلاهما قد قاوم رغبة بير في الالتحاق بالجيش، وأن بير قد اتكأ على صداقته مع بن غوريون في مقابل ذلك ليتم تعيينه مستشاراً رسمياً في وزارة الدفاع ليتسنى له الوصول الى جميع ما لها من وثائق.

اطمأن ايسر الآن الى أن بير كان يعمل لصالح موسكو عدة سنوات. ولكن هذا لم يعترف بشيء في أيام الاستجواب الأولى، وبقي يكرر تلك الصورة التي يرسمها لسيرة حياته أمام أصدقائه وزملائه عدة سنوات.

وفقاً لرواية بير عن سيرة حياته، ولد في فيينا عام ١٩١٢، وهاجر والداه الى الولايات المتحدة، ولكنهما عادا الى أوروبا بعد وقت قصير، ودرس بير الانسانيات والأدب الألماني في جامعة فيينا حيث تتلمذ ـ كما زعم ـ على يد ماكس راينهاردت، رجل المسرح المعروف... وفي أثناء دراسته بالجامعة انضم الى الطلاب الذين تمردوا ضد الدكتاتور «انغلبرت دولفوس».. واشترك في حرب الشوارع ضد النازيين عام ١٩٣٤، وتدرب في أكاديمية ـ فينز نويشنات ـ العسكرية، كما قال وأصبح ضابطاً في ـ الشوتسبان ـ أو حلف الدفاع النمساوي.

وفي عام ١٩٣٦، كما قال بير، ذهب الى اسبانيا للقتال الى جانب لواء الأمميين ضد الفاشيين في الحرب الأهلية الاسبانية، وقد خوّله تدريبه العسكري أن يصبح مدرباً هناك، وتعرف بير على جميع كبار العسكريين الشيوعيين واشترك معهم في معركتي مدريد وغواد البحارا... الشهيرتين، وساهم بير أيضاً في معركة تيرول الضارية. وفي أوائل عام ١٩٣٨، حين تبين أن الحرب ستكون خاسرة، هرب من اسبانيا وطلب منه السفر الى موسكو ليتلقى تدريباً اضافياً. ولكنه بدلاً من ذلك، عاد الى فيينا، حيث تأثر بالفكر الصهيوني، وبعد وقت قصير صح عزمه على الهجرة الى فلسطين. وقال بير

لأسريه متحدياً: «هذه هي قصة حياتي، مثلما تعرفون جميعاً».

وفي ذلك اليوم الرابع من بدء الاستجواب، زاره ايسر هرئيل، وكان هذا يعلم أن الأسير لا يبدي أي تعاون من جانبه، فدبر شيئاً ما لمواجهته.

وحدق هرئيل الى عيني بير، كما فعل في لقائهما الأول، قبل عدة أشهر، وقال له بنبرة هادئة، وعنيدة في الوقت نفسه: «أنا أعرف انك جاسوس سوفياتي، أخبرني بالحقيقة. اذا تعاونت معنا فسوف تسهل الأمر على الجميع، وعلى نفسك أيضاً. أخبرني حكايتك الحقيقية».

وفي مواجهة هذا التحدي، أعاد بير القصة ذاتها مرة أخرى حتى اذا فرغ منها قال له هرئيل بهدوء: «كذاب! لم نجد أي أثر لوالديك في النمسا، ولو كانا يهوديين نموذجيين، كما تدعي، فلماذا لا تكون مختوناً؟».

لقد فحصنا جميع السجلات النمساوية، فتوصلنا الى انك لم تقاتل في متاريس الشوارع، ولم تحصل على شهادة الدكتوراه كما تدعي، بل أنك لم تدرس في الجامعة، ثم أنك لم تذهب الى الأكاديمية العسكرية، فقد كان هذا محظوراً على اليهود آنذاك. وقد طلبنا دراسة قوائم الأسماء فلم يعثر على اسمك فيها، وليس اسمك موجوداً في قوائم الشوتسبان كذلك.

«ونقّبنا في سجلات لواء الأمميين، ولم نعثر على اسمك فيه، انك لم تحارب قط في اسبانيا، والواقع أنك لم تساهم في أية حملة عسكرية في أي مكان من العالم. والآن قل لي: من أنت؟ أخبرنا بالحقيقة».

واتضح لبير أن الموساد قد عرف زيف ادعاءاته، فانهار، وفي الأيام الثلاثة التالية أملى تقريراً وافياً بنشاطاته التجسسية.

وكان هرئيل قد اشتبه في أن موسكو قد ـ نشطت ـ بير بعيد حملة السويس عام ١٩٥٦ وألحّت عليه عندئذ في تقديم أية معلومات يمكنه الحصول عليها. وعندما كانت فرنسا تزود اسرائيل بالأسلحة نقل بير تفصيلات كمية ونوعية ما يصل الى اسرائيل منها، وكذلك فعل بصدد

الأسلحة التي اشترتها اسرائيل من ألمانيا، كما أنه جمع ما استطاع من المعلومات عن دور المانيا في حلف الأطلسي - الناتو - أثناء سفره الى المانيا. وكانت أبحاث بير العلمية الخاصة، في التكنولوجيا النووية خصوصاً، حد الموضوعات التي يحتمل أن يكون رؤساء بير في موسكو قد طالبوه بتقديم معلومات عنها.

وبقي بير يمزج الوهم بالحقيقة، حتى في أثناء بوحه باعترافاته، فقام عملاء الموساد وحلفاؤهم في اسرائيل وأوروبا، ومنها البلدان الشيوعية بالتحقق من كل كلمة تفوه بها، وأثبت البحث الدؤوب الذي قاموا به بطلان الكثير من ادعاءاته.

بدأت محاكمة بير في يونيو ١٩٦١، وأدت طبيعة الكثير من الأدلة في قضيته الى بقائها سراً، وكذلك بقيت بعض اعترافاته بشأن الطريقة الدقيقة التي نقل بها المعلومات الى موسكو سراً مكتوماً حتى يومنا هذا. ومن المعلوم على كل حال، أنه قد نقل للروس خططاً عسكرية تتصل بتكتيك القتال، كما نقل قوائم عن منشآت عسكرية سرية، فضلاً عن معلومات حول من يزودون اسرائيل بالأسلحة من الأجانب.

وفي أثناء المحاكمة، دافع بير عن نفسه بأنه فعل ما فعله لاعتبارات وطنية. وقال: «لقد شعرت بأن من واجبي المساهمة في انقاذ اسرائيل من الوقوع في قبضة القوى الغربية. وأعتقد أن على اسرائيل التحالف مع البلدان الشيوعية، وأنا لم أخن اسرائيل قط وإنما كانت جميع جهودي رامية الى ابعادها عن الطريق المؤدي بها الى كارثة سياسية».

وأخيراً حكم على اسرائيل بير بالسجن مدة عشر سنوات واستأنف الحكم، ولكن عقوبته زيدت الى ١٥ سنة. وبينما كان يقضي في سجن شطة بغور الأردن ألف كتاباً يبرر فيه أعمال التجسس التي قام بها على أسس ايديولوجية. وبقي في السجن حتى مايو ١٩٦٨ عندما أصابته نوبة قلبية توفي على أثرها.

والواقع إنه حين فر اللاجئون في الثلاثينات من المانيا والنمسا مع تعاظمْ قوة هتلر، انضم الى صفوفهم عملاء السوفيات الناطقون بالألمانية. ويكاد يكون من المؤكد أن اسرائيل بير هو أحد عملاء السوفيات في هذه الموجة.

وقد لقي السوفيات عناء كبيراً في تزويده بتغطية مضمونة مما يدل على إنهم اعتبروه واحداً من أخطر عملائهم في الشرق الأوسط. وبعد دخول بير السجن، اكتشف عملاء الموساد في النمسا أن شخصاً سمياً له كان يعيش هناك، وكان هذا طالباً يهودياً فقيراً يشبه بعض الشبه العميل الذي أصبح صديق بن غوريون الثقة فيما بعد. أما اسرائيل بير الحقيقي فقد اختفى سنة ١٩٣٨، وهي السنة التي هاجر العميل فيها الى فلسطين ولم يسمع به أحد بعد ذلك.

وانتظر الروس حوالي ٢٠ سنة وهي فترة طويلة جداً لإرسال رجلهم الى الميدان. وغني عن البيان انهم قد توقعوا منه انجازات كثيرة، وحصلوا على ما توقعوا بالفعل، فقد نقل بير كميات هائلة من المعلومات العسكرية من تل أبيب الى موسكو.

بيد أن أحداً لا يدري حتى يومنا هذا هوية اسرائيل بير الحقيقية. من أين جاء؟ وكيف جرى تجنيده؟ وممن كان يتلقى الأوامر؟.

إن الاجابة على هذه الأسئلة تقبع مطمورة في ملفات الاستخبارات السوفياتية، وفي قبر العميل الذي كان يسمي نفسه «اسرائيل بير».

في ظل هذا الواقع، نجد أنفسنا ـ نحن الشعب العربي ـ مجبرين على أن لا نعيش سعداء على قيد الحياة، لأننا مجبرون على الوجود في بيوت غير بيوتنا، وفي أرض غير أرضنا، وإن متنا فإننا مجبرون على أن ندفن في قبور نرفضها ولا نتمناها. . .

تلك هي سياسة الاحتلال وشريعة الاغتصاب.

وليس في قاموسنا أهم من اغتصاب الأرض والوطن على طريق اغتصاب الوجود من الأساس. تلك هي القوة بدون حق، وذلك هو الحق بغياب القوة.

تناقضات رهيبة تكلفنا وجودنا وحياتنا في هذا الزمن الذي أصبح فيه عنق الحق على مقصلة... «العدل الدولي» والعالم كله شاهد زور يدلي باعترافاته المناهضة لمشيئة التاريخ البشري وإرادته...

ولكن الحق في النهاية هو المنتصر.

المراجع

١ - دينيس أيزنبرغ وآخرون «الموساد جهاز المخابرات الاسرائيلية السرّي». المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار الجليل للنشر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨١. ص ٩٥ - ١٠٤.

٢ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت. يونيو ١٩٦٣. ص ١٩٥ - ٢٠٣.

٣ - زفي ألدوبي وجيرولد بالينغر «الجاسوسية الاسرائيلية وحرب الأيام الستة» تعريب غسان النوفلي. بيروت ١٩٧٢. ص ١٢٣ - ١٢٤.

المخابرات السوفياتية تستولي
على كنوز اسبانيا

كم هي جهنمية لعبة المخابرات، وكم هي خطيرة آثار عملياتها، والمخابرات السوفياتية عريقة جداً في هذا المضمار.

ففي الثاني والعشرين من شهر اكتوبر/ تشرين أول ١٩٣٦ قامت المخابرات السوفياتية بأخطر عملية من نوعها في تاريخ السيطرة على الذهب بعد أن نفذت بإشراف ستالين نفسه أكبر عملية استيلاء على كنوز اسبانيا ونقلها الى موسكو.

فما هو سر هذه العملية الجهنمية؟ وكيف كانت انعكاساتها؟ .

يعتبر الجنرال «الكسندر أورلوف» أول الهاربين الى الولايات المتحدة الاميركية بعد أن شغل رئاسة قسم مكافحة الجاسوسية في المخابرات السوفياتية. وهو الذي أشرف مباشرة على عملية الاستيلاء على الذهب الاسباني ونقله الى موسكو فيقول:

توجهنا مساء ٢٢/ ١٠/ ١٩٣٦ بالسيارة الى (قرطاجة) وهي ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي لاسبانيا وقد جلس بجانبي نائب وزير المالية الأسباني وهو غير قادر على اخفاء عصبيته، بينما سار وراءنا طابور يضم ٢٠ سيارة نقل حمولة كل منها خمسة أطنان. وكانت وجهتنا الى التلال التي تبعد خمسة أميال عن قرطاجة حيث يوجد مستودع الذخائر للبحرية الاسبانية. ولكننا كنا نسعى الى شيء أهم من البارود والقنابل.

كان الليل قد أرخى سدوله عندما توقفت قافلتنا. ولم ألحظ إلا بعد نزولنا من السيارة تلك الأبواب الخشبية الثقيلة التي تدعمها قضبان حديدية، وقد أقيمت في مواجهة سفح التل. وقد قام على حراستها بعض العسكريين، ولما تأكد الحارس من هويتنا جذب مسماراً ضخماً ففتح باب مزدوج على مصراعيه ورأينا أمامنا كهفاً فسيحاً مضاء بالمصابيح الكهربائية المموهة. وفي الداخل وقف ٦٠ بحاراً اسبانياً بانتظار أوامرنا بينما تكدست أمام الجدران ألوف الصناديق الخشبية الجديدة. وكان في هذه الصناديق سبائك وعملات تقدر بمئات الملايين من الجنيهات، هي كنز أمة عتيدة جمعته عبر القرون. وهذا هو الشيء الذي جئت من أجله وكانت مهمتي نقله الى موسكو. حدث هذا في الأشهر الأولى للحرب الأهلية الاسبانية. وكنت قد أمضيت عشرة أيام أقوم بتنظيم (عملية نقل الذهب)، بعد أن قرر عدد من الزعماء الجمهوريين الاسبان ايداع هذا الكنز في مكان أمين لدى «جوزف ستالين» خوفاً من أن يقع بين يدي الجنرال فرانكو وقواته الوطنية المتقدمة في حينه باتجاه مدريد.

وكان نقل الجزء الأكبر من الذهب (المقدر بـ ٦٠٠ مليون دولار) موضوع شائعات أو افتراضات منذ ثلاثين سنة، ولم يبق من الرجال الذين اشتركوا في العملية سوى اثنين: أنا (الجنرال الكسندر أورلوف) والآخر اسباني وهو الدكتور «جوان نجران» وزير المالية الاسباني في حينه.

كنت قد وصلت الى مدريد في ١٦/ ٩/ ١٩٣٦ بعد شهرين من اندلاع الحرب الأهلية لكي أرأس بعثة سوفياتية كبيرة من المخابرات تضم خبراء مختلفين. ولما كنت جنرالاً في إدارة المخابرات السوفياتية فقد كنت بطبيعة الحال كبير المستشارين السوفيات لدى الحكومة الجمهورية لشؤون المخابرات ومكافحة التجسس وحرب العصابات وهو منصب عليّ توليه لمدة عامين. وكنت كغيري من الروس في اسبانيا أؤيد قضية الجمهوريين بكل إخلاص.

أقمنا مكتباً لعملنا في الطابق الأعلى من السفارة السوفياتية في مدريد

وتحت تصرفنا جهاز لاسلكي قوي. وكنت قد أمضيت هناك أقل من شهر عندما أقبل كاتب الشيفرة الذي يعمل معي الى مكتبي، وتحت ابطه كتاب الشيفرة وبين يديه رسالة برقية قال عنها: انها وصلت الآن من موسكو وهي بعنوان «سري للغاية» باسم (شويد) أي اسمي الحركي لدى المخابرات السوفياتية. وقد قمت فوراً بفك رموزها التي كانت عبارة عن ملاحظة استهلالية من الجنرال «نيكولاي ايجوف» رئيس إدارة المخابرات السوفياتية ثم جاء بالبرقية ما يلي: «رتب مع لارجوكا باليرو رئيس الوزراء، شحن احتياطي الذهب الاسباني الى الاتحاد السوفياتي. استخدم سفينة سوفياتية، حافظ على أقصى قدر من السرية. اذا طالب الاسبان بإيصال فارفض - أكرر - ارفض. قل ان ايصالاً رسمياً سيصدر في موسكو عن بنك الدولة، انني أعتبرك مسؤولاً شخصياً عن العملية. التوقيع (ايفان فاسيليفتش وهو الاسم الحركي لستالين بالذات)». والواقع أن فكرة (حماية) الذهب من الوقوع في يدي الوطنيين بإرساله الى روسيا قد وضعها أصلاً الزعماء الجمهوريون المنزعجون أنفسهم حيث كان الوطنيون بقيادة الجنرال فرانكو يضيقون الخناق حول مدريد. وبدا سقوط المدينة وشيكاً. وصدر مرسوم «سري» في ١٣ سبتمبر، وقعه الرئيس «مانوريل ازانا» ووزير المالية الدكتور «جوان نجران» بنقل الذهب والفضة من خزائن بنك اسبانيا. وقد منح هذا المرسوم وزير المالية سلطة نقل المعادن الثمينة من مدريد الى المكان الذي يكفل في رأيه أفضل قدر من الأمن. ونص هذا المرسوم على أن عملية النقل سوف تعرض على «الكوريتز» أي البرلمان الاسباني للتصديق عليها ولكن هذا لم يحدث مطلقاً.

ومهما كان من أمر شرعية المرسوم فإنه بلا شك لم يكن يتوقع شحن هذا الكنز خارج البلاد. ولكن بعد أن تدهور الموقف العسكري وسع «جوان نجران» سلطته بدافع اليأس وقام بجس نبض الملحق التجاري السوفياتي حول اختزان الذهب في روسيا وذلك بعلم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فقط. وأبرق الى موسكو فأسرع ستالين الى انتهاز الفرصة.

وبعـد مرور يـومين على وصول بـرقية ستـالين اليّ قمت بالتبـاحث مـع «جـوان نجـران» في مبنى سفـارتنـا. كـان وزيـر المـاليـة الاسبـاني (استـاذ الفيزيولوجيا) الوافد حديثاً الى مقاعد الحكم نموذجاً صـادقاً للشخص المثقف الذي يعارض الشيوعية من الناحية النظرية. إلا أنه بعطف بصـورة مبهمة على «التجربة العظمى» التي تجري في الاتحاد السوفياتي. وهذه السذاجة السيـاسية تسـاعد على تفسيـر الدافـع الذي جعله يسمـح بتصديـر كنـز بـلاده الى تلك البلاد. وهذا فضلاً عن أن هتلر وموسوليني كانا يساعدان الوطنيين بينما وقفت الدول الديمقراطية بعيداً. أما روسيـا فكانت حليفاً للجمهوريين، وهي الـدولة الوحيدة الكبرى التي كانت تساندهم. وسألته أين يوجد الذهب الآن؟ فأجاب وزيـر الماليـة: في قرطـاجـة، في أحـد الكهـوف القـديمـة التي يستخـدمهـا الأسطول لخزن الذخائر. وقلت في نفسي لقد ساعد الحظ ستـالين مرة ثـانية وقد أصبحت مشكلتي بسيطة جداً بوجـود الشحنة في قـرطاجة. فذلـك الميناء الفسيح هو الذي تقوم سفننا السوفياتية بإنزال الأسلحة والذخائر فيه. وهكذا لا توجد فيه السفن فحسب بل الأشخاص السوفياتيون الذين نثق بهم أيضاً.

وكان لابد من الإفضـاء بالسـر الى مسؤول اسباني آخـر هو «انـداليشيو برتيو» وزير البحرية والطيران فإننا سنحتاج الى سفنه الحربية لحراسـة الشحنة عبر البحر المتوسط الى أوديسا على البحـر الأسود. وعنـدما استشيـر في ذلك «وافق على إصدار الأوامر اللازمة».

كانت السرعة ضرورية جداً لأن أية اشاعة كفيلة بجعل ايطاليا والمـانيا تعترضان سفننا. والأكثر أهميـة من ذلك أن أعصـاب الشعب الاسباني كـانت في حالة تكفل بإلغاء العملية بأسرها فيما لو تسرّب أي نبأ عن إرسال كنز الأمة الاسبانية الى الخارج...

وبنـاء على تعليمات «جـوان نجران» قـدم بي أحد كبـار مـوظفي وزارة الخزانة (المالية) تفاصيل الذهب وتخزينه فقال: ان هناك حوالي عشـرة آلاف صنـدوق حجم كـل منهـا ٣٠ × ٤٨ × ١٨ سم يحـوي كـل منهـا على ٦٥

كيلوغراماً من الذهب ومجموعها حوالي ٧٢٥ طن.

وفي اليوم التالي ذهبت الى قرطاجة بالسيارة - يضيف الجنرال أورلوف - وكان ملحقنا البحري قد سبقني الى هناك وهو صديقي القديم «نيقولا كوزنتسوف» (الذي أصبح خلال الحرب العالمية الثانية وزيراً للبحرية السوفياتية) وأمرته أن يجند كل السفن السوفياتية التي تصل الى قرطاجة وأن يتم إفراغها بأقصى سرعة ويضعها تحت تصرفي. وكانت هناك سفينة شحن روسية في الميناء ومن المتوقع وصول سفن أخرى. كما أعطيت الأوامر الى القائد الاسباني فوضع تحت تصرفنا (٦٠) بحاراً. والتفت بعد ذلك الى مشكلة نقل الذهب من الكهف الى أرصفة الميناء. كان هناك لواء دبابات سوفياتي قد نزل في قرطاجة قبل اسبوعين للوقوف بجانب الجمهوريين ضد هجمات الجنرال فرانكو بعد أن وضعت للدبابات أرقام اسبانية. وهو يعسكر الآن في «أرتينا» على مسافة ٦٠ كيلو متراً يقوده الكولونيل «كويفوشين» الذي عرفه الاسبان باسم هيليه. وقد خصص كويفوشين لي ٢٠ سيارة نقل عسكرية من التي لديه ويقودها أفضل سائقي الدبابات السوفيات.

وأخيراً أصبح كل شيء على استعداد وكانت السيارات تقف في سكة الحديد في قرطاجة بقيادة الجنود السوفيات الذين ارتدوا ملابس الجنود الجمهوريين الاسبان. وأرسلنا البحارة الاسبان قبل ذلك بساعتين الى الكهف بينما كانت سفن سوفياتية بملاحيها وحتى الطهاة في حالة تأهب توقعاً لعدة ليال من عمليات شحن هامة.

كان البحارة الاسبان الستون من بحارة الغواصات وأجسامهم نحيلة. وكان نقل كل صندوق الى السيارات يتطلب تعاون اثنين منهم، ولتسهيل العد جعلنا حمولة كل سيارة (٥٠) صندوقاً فقط. وكنت أرسل كل عشر سيارات الى الميناء بعد أن يتم شحنها. فإذا عادت بعد ساعتين تكون السيارات العشر الأخرى قد استعدت للرحيل مع ٥٠٠ صندوق أخرى. وكنت أتقدم كل قافلة بسيارتي ومعي أحد ضباط المخابرات السوفياتية ومندوب من وزارة المالية

الاسبانية. واستمرت عملية الشحن ثلاث ليال من السابعة مساء وحتى الصباح. وكانت تلك الليالي حالكة الظلام لا قمر فيها وقد أظلمت الدنيا تماماً ولم يكن باستطاعتنا استخدام أنوار السيارات. وكان السائق لا يرى السيارة التي أمامه أحياناً فيتيه عن الطريق ويختل الطابور. وقد ساورني الرعب ـ يضيف أورلوف ـ عدة مرات لهذا السبب. إذ أن رجال الدبابات الروس الذين يرتدون الزي العسكري الاسباني لم يكونوا يلمون بكلمة واحدة اسبانية. فماذا يحدث لو احتجزت أحدهم دورية عسكرية من البوليس الحربي الاسباني، واعتقدت أنهم (جواسيس)؟ ومن المعروف أن قضاء ومحاكمة الحرب يكونان من السرعة بحيث لا نستطيع تلافي أي تهوّر. بل ماذا لو فتشت (الشرطة العسكرية) احدى هذه السيارات؟ إن نبأ رحيل بعض الأجانب بشحنات من الذهب سوف يشعل نيران أعمال عنف سياسية لا حصر لها. كما كان ثمة خطر يتمثل في حدوث غارة المانية. لقد كانت الكهوف ملأى بالمتفجرات وأية اصابة مباشرة يمكن أن تكون فيها نهايتنا جميعاً أو ربما غرق سفننا في الميناء. وكان الحظ في ركابنا حتى الليلة الثالثة والأخيرة. حوالي الساعة الرابعة صباحاً راحت القاذفات الالمانية تمر من فوق سلسلة التلال المنخفضة وكان في استطاعتنا ونحن في الكهف أن نسمع صوت القنابل وهي تصيب أرصفة الميناء. وعلمت من أحد السائقين العائدين أن الألمان أصابوا سفينة شحن سوفياتية كانت تقف بالقرب من سفننا. وقررت أن أنهي العملية وأرسل سفني الى خارج الميناء بأسرع ما يمكن. وعندما أرسلت آخر سيارة في تلك الليلة سألت موظف المالية المشرف على العملية عن رقمه الأخير فقال: لقد نقلنا حتى الآن ٧٨٠٠ صندوق أي ثلاثة أرباع الذهب. وفي العاشرة من صباح ٢٥ اكتوبر وضع آخر صندوق على ظهر آخر سفينة وحلت اللحظة الحرجة التي لا مناص منها عندما طالبني الموظف الاسباني بإيصال عما استلمته، فتحاشيت عيني الموظف الحمراوين وحاولت أن أبدو غير مكترث وقلت ببرود: «ايصال؟ ولكني أيها الرفيق لست مفوضاً لإعطاء ايصال. لا تقلق يا صديقي فسوف يصدر الإيصال من بنك الدولة في

الاتحاد السوفياتي عندما يتم استلام ووزن وفحص كل شيء هناك في موسكو».

وفغر الرجل فاهه دهشة وقد أصابه الذهول. ولم يستطع أن ينطق إلا بكلمات مبهمة غير متماسكة، أي أنه لم يفهم جوابي. فالأمر قد يعني حياته في هذه الأحوال. وشعرت أنه يود الاتصال بمدريد. ولكني لم أرد قطعاً أن أجعله ينشر الذعر بواسطة الحديث التلفوني. فاقترحت عليه أن يرسل عوضاً عن الإتصال مندوباً عن وزارته في كل سفينة كمرافقين رسميين للذهب. ولم يكن هذا التساهل يعني شيئاً في ضوء هذا المنطق البارد. ولكن الرجل الشارد اللب وافق عليه. وبعد ساعتين أقلعت السفينة. واستطعت أن أبعث تقريراً الى موسكو بأن الشحنة الثمينة في طريقها الى أوديسا. كما استطعت في النهاية أن أعرف النهاية السوفياتية للعملية وذلك من كبار موظفي المخابرات الذين كانوا يروحون ويجيئون بين روسيا واسبانيا. وقد تقاطر على أوديسا عدد كبير من كبار ضباط المخابرات السوفياتية من موسكو وكييف. وظلوا هناك عدة أيام يشرفون على تفريغ الذهب ومن ثم حمله الى قطار خاص. وقد أحيطت مساحة كبيرة من الميناء حتى خطوط السكك الحديدية بقوات خاصة. وعندما رحل القطار الى موسكو صحبه المئات من الضباط المسلحين. وأقام ستالين مأدبة فاخرة لكبار ضباط مخابراته احتفالاً بهذه الضربة وذلك في الليلة التالية لوصول الذهب الى موسكو. وكان جميع أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي حاضرين، بينما ظهر ستالين في حالة معنوية عالية. وقد ذكر أريجوف مدير المخابرات السوفياتية لأحد أصدقائي: «إن الاسبان لن يروا ذهبهم مرة أخرى إلا بعد أن يروا آذانهم».
وفي خلال الواحد والعشرين شهراً التي مضت على عملية الذهب وفراري من الاتحاد السوفياتي الى أميركا كنت على صلة مستمرة بالزعماء الجمهوريين الاسبانيين. ولكن الأمر ظل سراً مؤلماً بيننا لا يتحدث عنه أحد. وكنت واثقاً أن عملهم بدأ يبدو أمامهم باعتباره غلطة كبرى. وكانت المرة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه المسألة في خلال حديث مع «نجران» وزير الخزانة كان قد

أصبح رئيساً للوزراء فقد سألني: أتذكر هؤلاء الأربعة الذين وضعوا على سفنكم؟ إنهم ما زالوا في روسيا بالرغم من أكثر من عام... إني أتساءل لماذا لا يسمح لهؤلاء المساكين بالعودة الى وطنهم؟ وقد اكتشفت فيما بعد أن هؤلاء الأربعة لن يسمح لهم بالعودة إلا بعد انتهاء الحرب الأهلية. ولابد أن الجنرال فرانكو قد علم بنبأ الذهب (الضائع) بمجرد استيلائه على مدريد. ولكن حكومته لم تذكر شيئاً عنه لمدة ١٨ عاماً تقريباً. فالعملة الاسبانية ضعيفة فعلاً وسوف تنهار بكل تأكيد اذا عرف أن الخزائن الوطنية خالية تماماً. وقد تحطم الصمت الرسمي في ديسمبر ١٩٥٦ بعد موت الدكتور «جوان نجران» فقد أكدت وزارة الخارجية الاسبانية أنها وجدت أخيراً بين أوراقه الخاصة إيصالاً رسمياً عن ذهب مودع لدى الاتحاد السوفياتي.

وبعد بضعة أشهر اعترف مقال نشر في صحيفة (برافدا) بعبارات ساخرة بأن حوالي (٥٠٠) طن من الذهب الاسباني وصلت فعلاً الى موسكو عام ١٩٣٦ وأن الحكومة السوفياتية قدمت إيصالاً عنها. ومضت الصحيفة تقول: إن هذا الذهب كان لضمان سداد قيمة الطائرات والأسلحة والذخيرة وغيرها من السلع السوفياتية التي قدمت للجمهوريين في اسبانيا... (انتهى كلام أورلوف).

يبدو من خلال ذلك أن الجنرال أورلوف الهارب الى الولايات المتحدة تعاون مع المخابرات الأميركية في صياغة أحاديثه الخاصة بهذه المسألة فأتت مشوهة ومدسوسة في كثير من الأحيان بشكل يخدم المصالح الاميركية وأهدافها،خاصة بعد انتصار الجنرال فرانكو الفاشي. وهكذا تحول الذهب الاسباني في موسكو الى سلاح فعال في يد حركات التحرر الوطني في المستعمرات وأشباه المستعمرات، تلك الخاضعة للسيطرة الاسبانية وغيرها من أجل الوصول الى الحرية والاستقلال. أما المساعدات التي يقدمها الاتحاد السوفياتي الى الشعوب المناضلة لا تعادل في قيمتها ذهب اسبانيا المنهوب من مختلف بقاع الأرض التي أخضعتها فحسب بل تساوي كل كنوز العالم قاطبة وذلك لأن الحرية هي أغلى شيء على الإطلاق.

لينين ومؤامرة السفراء الثلاثة

قليلون جداً في التاريخ، أولئك الذين ارتبط اسمهم ونضالهم وشخصيتهم بتاريخ شعوبهم وأوطانهم... وقليلون جداً أيضاً أولئك الذين تجاوز اسمهم وتاريخهم حدود بلادهم الأم، ليصبحوا رمزاً لنضال الشعوب في سبيل حريتها واستقلالها. ويعتبر «فلاديمير ايليتش لينين» مؤسس الحزب الشيوعي السوفياتي وأول دولة اشتراكية في العالم، من أكبر الرموز الثورية في القرن العشرين... وانطلاقاً من وزنه الثوري، وأهميته الدولية وتأثيره «السحري» في حركات التحرر الوطني في المستعمرات وأشباه المستعمرات، استبسلت الدول الغربية، وتفننت في ابتكار الطرق والأساليب الآيلة الى تصفية «لينين» جسدياً. ولم تكن المؤامرة المعروفة بمؤامرة «السفراء الثلاثة»، إلا النموذج الحي على مثل هذا النشاط الامبريالي الغربي...

فمن هم هؤلاء «السفراء الثلاثة»؟ وما هي أسرار مؤامرتهم هذه؟.

فور انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧، شنت الامبريالية الدولية حرباً علنية وسرية ضارية ضد الجمهورية السوفياتية واستعملت كافة الطرق والأساليب في هاتين الحربين بما في ذلك التدخل المسلح وتأييد ومناصرة الثورة المضادة في الداخل، وتنظيم وحياكة المؤامرات وعمليات القتل والاغتيال والتخريب، واختلاق الأكاذيب الخسيسة الحاقدة.. وانقضت العقود والعهود، لكن الطرق والأساليب التي تلجأ اليها الامبريالية في مناوأة الاشتراكية، وحركة التحرر الوطني، لم تتغير. وكانت مؤامرة «السفراء الثلاثة» واحدة من مشاهد النشاط التخريبي الهدام قامت به أجهزة المخابرات التابعة للبلدان الغربية ضد الدولة السوفياتية إبان سنوات الحرب الأهلية في

أعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ . .

في أحد أيام شهر آب / أغسطس سنة ١٩١٨ ، شوهد رجلان يتجاذبان أطراف حديث جذاب في شارع «تسفيتنوى بولفار» بموسكو. وكان أحد الرجلين أصفر الشعر، له عينان رماديتان ممشوق القامة، يرتدي الزي العسكري، هو «ادوارد بيرزين» قائد احدى وحدات الجيش السوفياتي. أما الرجل الثاني فقد كان بديناً يرتدي الزي المدني، هو الملازم «سيدني ريلي» عميل المخابرات الانجليزية . .

وكان «ريلي» يتحدث أساساً بينما كان الآخر يستمع. وانهمك يشرح له مخططات إلقاء القبض على قادة الحزب البلشفي (الحزب الشيوعي فيما بعد) والدولة السوفياتية أثناء عقد جلسة مجلس مفوضي الشعب (مجلس الوزراء) وحيث أن العميل الانجليزي كان يعرف أن «بيرزين» يضطلع بقيادة الوحدة المكلفة بحراسة الكرملين، فقد عرض عليه أن يقوم باعتقال جميع أعضاء الحكومة أثناء انعقاد الجلسة. وافترض المخطط أنه سيتم اغتيال «لينين» في الحال. واستطرد «ريلي» في شرح المخطط، فقال أنه سيكون من الضروري بعد ذلك الاستيلاء على بنك الدولة والمقر الرئيسي للتلغراف وسنترال التليفونات. . .

وفي نهاية الحديث انتقل مظروف ثقيل به ٧٠٠ ألف روبل من يد رجل المخابرات الانجليزي الى يد «بيرزين».

بعد ذلك التقى «بيرزين» «بريلي» وحصل منه على أدق تفصيلات التعليمات الخاصة بهذه العملية علاوة على نصف مليون روبل سوفياتي. وفي أواخر آب / أغسطس سافر «بيرزين» بناء على مهمة كلفه بها «ريلي» الى بتروغراد (لينينغراد) حيث كان عليه أن يقوم بتنسيق أعماله وخطواته مع مجموعة المتآمرين الموجودين هناك. ولم يدر بخلد الجاسوس اطلاقاً، ولم يتطرق الى نفسه الشك أبداً، ان «بيرزين» ينفذ مهمة أجهزة اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب لعموم روسيا، والمعروفة بـ «لجنة الأمن الاستثنائية». .

كانت تلك الأحداث تجري في وقت عصيب مشوب بالقلق. اذ كانت حلقة نيران الجبهات تضيق حثيثاً حول الجمهورية السوفياتية. وحشدت الجمهورية الفتية كل قواها واستجمعتها من أجل الصمود، وصد هجوم المتدخلين، وجيوش الحرس الأبيض. وكان الخطر الأكبر متمثلاً في الانتفاضات المسلحة والنشاط السري من جانب منظمات الثورة المضادة الغفيرة العدد. وكان العبء الأساسي في التصدي لها ومكافحتها واقعاً على كاهل «لجنة الأمن الاستثنائية». وكان يترأس هذه اللجنة «فيليكس دزيرجينسكي»، رفيق كفاح لينين والبلشفي الصعب المراس والقوي الشكيمة، والذي كان يتميز بنقاء وصفاء الروح والبصيرة. وهو الذي يعتبر من كبار أوائل المؤسسين لجهاز المخابرات السوفياتي، الذي يتمتع بتفوق كبير على مختلف أجهزة الاستخبارات في العالم..

وفي سنوات الحرب الأهلية (١٩١٨ - ١٩٢٠) كشفت اللجنة عن عشرات المؤامرات التي حاكتها الثورة المضادة. وكان سر نجاحها في نشاطها هو الصلة الوثيقة بأفراد الشعب من العمال والفلاحين والكادحين الذين قاموا بدورهم على أكمل وجه بتقديم كافة أشكال العون الى رجال «لجنة الأمن الاستثنائية»...

ففي شهر يونيو من عام ١٩١٨، تلقت «اللجنة الاستثنائية للأمن» معلومات تفيد أن الممثلين الدبلوماسيين لكل من الولايات المتحدة الاميركية وانجلترا وفرنسا، يمارسون نشاطاً لا يتناسب ولا يتماشى مع وضعهم الرسمي. فقد كان هؤلاء يضعون ويحيكون مخططات الأعمال.. التخريبية الهدامة للإطاحة بالحكومة السوفياتية. ولهذا فهم يقيمون الصلات بعناصر الثورة المضادة ويجندون المواطنين السوفيات للقيام بأعمال التجسس والتخريب. وقررت «اللجنة الاستثنائية للأمن» أن تتوغل في معسكر الدبلوماسيين المتآمرين والوقوف على كنه مخططهم ثم تفنيدهم وكشفهم

وفضحهم. وسافر اثنان من الشبان العاملين «باللجنة الاستثنائية للأمن» الى بتروغراد، وهما «يان بويكيس» و«يان سبروجيس» بإسمين مستعارين، حيث كانت بها طائفة من سفارات الدول الغربية. واستطاعا أن يكتسبا ثقة رجال الثورة المضادة الذين سرعان ما عرفوهما بالملحق البحري لانجلترا، وكان اسمه «كرومي». وفي منتصف أغسطس قدم «بويكيس» و«بيرزين»، وكانت اللجنة الاستثنائية قد قررت اشراك الأخير في العملية الرامية الى كشف القناع عن المتآمرين، الى الشقة الخاصة للمستر «لوكهارت» رئيس البعثة البريطانية في موسكو. وكان معهما خطاب من «كرومي». وصدق «لوكهارت» الرجلين الوافدين، وأصدر تعليماته الى العميل «ريلي» بالاتصال بهما..

وأخذت تفاصيل المؤامرة تتضح تدريجياً. وكانت خيوطها الممتدة بين كثير من المدن وجيوش الثورة المضادة تؤدي كلها الى هيئات التمثيل الدبلوماسي لكل من الولايات المتحدة الاميركية وانجلترا وفرنسا، والتي كانت تعمل فيما بينها على نحو منسق. وهذا هو السبب في أن هذه المؤامرة عرفت في التاريخ باسم مؤامرة (السفراء الثلاثة). وفي الثلاثين من أغسطس ١٩١٨ وقع حدث مأساوي. فقد وقعت محاولة آثمة للإعتداء على حياة «فلاديمير لينين» أصيب فيها بجرح بالغ. ومع أن الكثير من جوانب المؤامرة لم يكن قد اتضح بعد، إلا أن الحكومة السوفياتية أصدرت تعليماتها الى «اللجنة الاستثنائية للأمن» للقضاء على المؤامرة هذه. وكان الأمر يتطلب اتخاذ تدابير حيوية فعالة فوراً ضد ممثلي البلدان الامبريالية الموجودة فعلياً في حالة حرب ضد روسيا السوفياتية، ذلك أن القوات الاميركية والانجليزية والفرنسية قد وطئت الأرض السوفياتية وعاثت فيها فساداً...

والجدير بالذكر، أن الشابة الاشتراكية الثورية «دورا كابلان»، هي التي أطلقت الرصاص على لينين حين كان يغادر مصنعاً في موسكو. وقد اخترقت احدى رصاصات كابلان رئة لينين، واستقرت الثانية في رقبته. وبرغم أنه لم يَلْقَ حتفه إلا أن فرص بقائه على قيد الحياة كانت ضئيلة (استعاد لينين

قدراته، لكن عافيته لم تعد ومات في العام ١٩٢٤).

وفي مساء الحادي والثلاثين من آب / أغسطس اعتقل رجال لجنة الأمن بعض موظفي الأجهزة الدبلوماسية الانجليزية والفرنسية في موسكو. وتم اعتقال «لوكهارت» من بينهم. وأثناء الحديث معه طلب منه «بيتيرس» نائب رئيس «اللجنة الاستثنائية للأمن» أن يفسر محاولة رشوة وتجنيد «بيرزين» قائد احدى الوحدات العسكرية السوفياتية. وعرض على الدبلوماسي الانكليزي بطاقة تحقيق الشخصية التي وقعها شخصياً وأعطاها «لبيرزين» وكانت هذه البطاقة تتضمن رجاء الى كافة السلطات العسكرية الانجليزية بتقديم عونها ومساعدتها الى «عميله». غير أن «لوكهارت» رفض الاعتراف بأي شيء مستنداً في ذلك الى وضعه الدبلوماسي. وبعد عدة ساعات تم الإفراج عنه بناء على أوامر الحكومة السوفياتية. . .

وعلى الرغم من التدابير التي اتخذت، تمكن العملاء الأجانب من الاختفاء مع أنهم كانوا معروفين لدى «لجنة الأمن الاستثنائية»، وهم على وجه التحديد «ريلي» الموظف بالمخابرات الانجليزية، و«فيرتيمون» موظف المخابرات الفرنسية و«كالاماتيانو» موظف المخابرات الاميركية. وألقى رجال «لجنة الأمن الاستثنائية» القبض على عدة عملاء كانوا قد جندوا بمعرفة الثلاثة الفارين. فقد اعترف «فريدي» الذي قبض عليه متلبساً بجريمته بأنه يعمل في خدمة رجل المخابرات الاميركية «كالاماتيانو»، وأنه كلفه بجمع المعلومات عن الوضع الاقتصادي والسياسي والعسكري للجمهورية السوفياتية. . .
وأثارت الحكومتان الانجليزية والفرنسية والبرجوازية الغربية عاصفة هوجاء من «الاحتجاج» في تلك الأيام. وألقي القبض على «ليتفينوف» ممثل روسيا السوفياتية في لندن وموظفيه من قبيل الانتقام. وألقت الحكومة السوفياتية القبض من جديد على «لوكهارت» في موسكو. وفي السابع من سبتمبر عام ١٩١٨ أعلن مفوض الشعب للشؤون الخارجية «تشيتشيرين» أمام الأجانب «أن الممثلين الدبلوماسيين والعسكريين لانكلترا وفرنسا يستغلون وضعهم في

تنظيم وحياكة المؤامرات في أراضي روسيا السوفياتية بهدف إلقاء القبض على أعضاء مجلس مفوضي الشعب عن طريق الرشوة والدعوة بين الوحدات العسكرية، وبهدف نسف الجسور ومخازن ومستودعات المواد الغذائية والقطارات. وتفيد المعلومات بما لا يدع مجالاً للشك أن خيوط المؤامرة تلتقي كلها في أيدي «لوكهارت» رئيس البعثة الانجليزية، وعملائه.. ولقد اتضحت بالفعل حقيقة أن مبنى السفارة الانجليزية في بتروغراد قد تحول فعلاً الى شقة سرية للمتآمرين. ولذا فإن حكومة الجمهورية السوفياتية تجد نفسها مضطرة الى تهيئة ظروف لهؤلاء الأشخاص المتورطين في المؤامرات يستحيل معها استمرارهم في ممارسة نشاطهم الآثم من وجهة نظر القانون الدولي»..

ومن الجدير بالذكر أن بعض الدبلوماسيين المتآمرين قد اختفوا في مبنى السفارة النروجية ومن بينهم القنصل العام الفرنسي «جرينار» والجنرال «لافيرن». وذات مرة ألقى أحد موظفي لجنة الأمن الاستثنائية القبض على شخص حاول دخول السفارة واتضح بعد الوقوف على شخصيته أنه العميل الاميركي «كالاماتيانو» الذي كان مطلوب القبض عليه وعثروا لديه على كمية هائلة من «الشيفرات» والمعلومات السرية عن الوضع العسكري والاقتصادي للبلاد السوفياتية. وكان «كالاماتيانو» يقوم بنشاط تجسسي كبير، ذلك أنه كان يعمل في الوقت نفسه مع رجال المخابرات الحليفة مثل «ريلي» و«فيرتيمون» تحت ستار الشركات التجارية الاميركية مع تزوير الوثائق والمستندات اذا ما تطلبت الضرورة ذلك. واتضح أن كثيرين من الجنرالات والضباط والموظفين السابقين الروس كانوا قد وقعوا في شباكه. وتمكنت «لجنة الأمن الاستثنائية» من إلقاء القبض عليهم جميعاً..

وبعد ذلك بفترة قصيرة تم التوصل الى اتفاق بإطلاق سراح الدبلوماسي السوفياتي «ليتفينوف» وموظفيه. وتم كذلك طرد جميع الجواسيس الدبلوماسيين من أراضي البلاد السوفياتية. وكانت تلك هي نهاية واحدة من أولى محاولات البلدان الغربية للقيام بعمل تخريبي سري ضد الجمهورية السوفياتية..

وليس من المبالغة في القول أن عظمة لينين هي ذاتها عظمة ثورة اكتوبر أول ثورة اشتراكية منتصرة في التاريخ. اذ أن هؤلاء الامبرياليين كانوا يدركون جيداً أن القضاء على لينين ورفاقه في مجلس مفوضي الشعب، هو قضاء على هذه الثورة العملاقة. ولهذا لم يتأخروا في هذا العمل، لكنهم لم يحصدوا سوى الخيبة والفشل.

المراجع

١ ـ ستيبانوف «المجلة العسكرية السوفياتية» العدد العاشر. شهر اكتوبر

٢ ـ مجلة «الجيل» (القبرصية). العدد الثاني. المجلد العاشر. فبراير ١٩٨٩. ص ٩٥ ـ ١٠٢ (بقلم فيليب نايتلي، وعرض سعد محيو).

فتى الأبطال بين
براءة الطفولة وكرامة الوطن

حروب التاريخ غول لا يشبع، والويل لمن اكتوى بنار حرب لا تعرف الرحمة والشفقة، ولا تفرق بين الطفل والشيخ والنساء والشباب، كما بين المدارس والمنازل والمستشفيات وأماكن العبادة وبين المواقع العسكرية. وهل هناك أشرس من الحرب العالمية الثانية التي أشعل نارها هتلر النازي من أجل السيطرة على العالم؟.

لكن مثل هذه الحروب سرعان ما ترفع الأطفال والفتيان ـ بسبب بطولاتهم ـ الى مصاف العظماء والأبطال، كما هو حال الرائد الفتى الصغير «ليونيد جوليكوف» الذي استحق لقب «بطل الاتحاد السوفياتي» وهو في سن الرابعة عشرة.

كيف كان ذلك؟ وما هي أسرار هذه البطولة؟.

كانت الحرب الوطنية العظمى دائرة؛ وفي المؤخرة البعيدة، وفي الجبهة كان الأولاد يساعدون الوطن ـ قدر المستطاع ـ في الكّفاح ضد الأعداء النازيين الفاشيين. كما كانوا يفكرون في شيء واحد وهو أن البلاد في خطر، ويجب العمل والدراسة والكفاح بصورة أفضل. وهكذا كان!!.

كان بين أمثال هؤلاء الأولاد الرائد الفتى «ليونيد جوليكوف».

كان ليونيد يتعلم في الشتاء، ويساعد أمه في الصيف بعد أن توفي والده إثر مرض الروماتيزم تاركاً له وصيّة هامة: «يجب عليك مساعدة الأسرة

يا ليونيد». وقد كان وفياً بالفعل لأسرته ووطنه خير وفاء.

عاش «ليونيد جوليكوف» مرارة التشريد عن قريته التي هرب أهلها بعد دخول الجيش الهتلري اليها، ولم يكن ليونيد يتصور مرّة ظهور الالمان في قريته.

وعندما سأله رفيقه الصغير «فالكا»: ـ واذا قدموا، ماذا ستفعل؟ أجاب ليونيد بدون تحديد: ـ سأفعل شيئاً ما.

وفجأة ظهر أن «فالكا» الصغير كان على حق: فقد أخذت القوات النازية تقترب أكثر وأكثر بعد أن استولت على «ستارايّا روسّا»، وظهرت على شاطىء نهر لوفات. ومن يوم الى آخر كانوا يستطيعون الاستيلاء على لوكينو وهي قرية ليونيد على نهر بولا.

وأصبحت القرية شبيهة بالخلية المضطربة. كانوا يحفرون في البساتين الحفر التي خبئت فيها الأشياء بعيداً عن الهتلريين. وبعد ذلك هجرت القرية كلها الى الغابة.

وفي أحد الأيام قرر ليونيد قطع وقت الفراغ والذهاب الى قرية لوكينو للنظر الى منزلهم، ولمعرفة هل يوجد الالمان في القرية؟.

وقد وُفّق ليونيد في الوصول الى النهر بعد عملية تسلّل يقظة، وجلس يتنصّت لأقل خرخشة. وأطل من وراء الرابية حيث شاهد فجأة عدداً من الجنود، عرفهم سريعاً أنهم ليسوا من الروس، لكنهم ألمان.

ركض مقترباً من السدود عند النهر، وسرعان ما شاهد رجلاً يرقد في حفرة ليست عميقة، يطلق الرصاص من رشاشه على الجنود الالمان. وكان رامي الرشاش يزحف من مكان الى آخر معطياً دفعات من الرصاص ثم يزحف أبعد، ثم من جديد يفتح النيران. لقد كان يتماكر لكي يعتقد الالمان أن عدداً من الرماة عند النهر وليس رامٍ واحد. . .

ولكن الرشاش صمت لمدة غير طويلة، فصاح ليونيد مبتهجاً: انك

ضربتهم بمهارة! فارتعش رامي الرشاش الذي كان مشغولاً بالمعركة والتفت بعنف الى ليونيد.

- ماذا يلزمك؟ - صرخ بغضب وهو يشاهد أمامه ولداً - ماذا يلزمك هنا؟.

- انني من هنا - أجاب ليونيد - لقد أردت مشاهدة قريتي.

- وما اسمك؟.

- ليونيد.

فقال رامي الرشاش: حينئذ هاك يا ليونيد، سوف أبتعد الآن وأريد أن أعهد اليك بشيء... لقد قتل الفاشيون رفيقاً لي، وها هو يرقد بين تلك الشجيرات. وقد كان اسمه «أوليج». آه وأي شاب كان هو! فلتدفن أوليج، احفر قبراً وادفنه لكي لا ينتهكوه.

قتل رامي الرشاش، فدفنه الأولاد تحت شجيرات الصنوبر، ونثروا فوقه الأعشاب، فقال «فالكا»: لنأخذ الرشاش لأنفسنا.

- بالطبع، وإلا سيحصل عليه الجنود الفاشيون... سنصنع مخبأ ونخبئه.

وهكذا حمل الأولاد على أكتافهم الرشاش اليدوي واختفوا في ظلام الغابة. وفي صباح مبكر غائم اتجه الأولاد لصنع المخبأ. وقد كانوا يصنعونه حسب كل القواعد. فقد فرشوا قماشاً من الألياف وألقوا عليه بالتربة المستخرجة من الحفرة لكي لا تبقى دلائل في أي مكان ويكون بذلك مخبأ جيداً. وحين أخفيت جميع الدلائل ونمت على مكان المخبأ عرمة كبيرة من أغصان الشجر، قال ليونيد: - والآن يجب أن لا يباح لأحد ولا بكلمة واحدة، كالسر الحربي! واقترح «سيريوجا»: يجب حلف اليمين.

- ولماذا؟ - لكي يكون أكثر إيماناً.

ـ دعنا فقط نعطي كلمة شرف الرواد، وهذا يكفي. أو نراجع من جديد الوعد الاحتفالي للرواد وسيكون أكثر قوة.

وأيده ليونيد: ـ هذا صحيح يا أولاد. فلنعد مرة أخرى الوعد جميعاً.

ورفع الأولاد أيديهم في سلام ابتهاجي وأعادوا جميعاً كلمات قسم الرواد: «انني رائد فتى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. انني أعد بمهابة أمام وجه رفاقي بأنني سأناضل في صلابة من أجل قضية الاشتراكية ومن أجل انتصارها. وأعد بأنني سأعيش وأتعلم حتى أصبح مواطناً لوطني الاشتراكي عن جدارة».

ودوت كلمات الوعد الاحتفالي بطريقة مؤثرة على وجه الخصوص في تلك الغابة النائية بالقرب من السلاح المدفون في الأرض والذي أعده الرواد لمكافحة العدو. وبعد بضعة أيام قابل ليونيد معلمه في المدرسة «فاسيلي جريجور يفتش» الذي كان يحب ليونيد كثيراً. وتعجب المعلم بعد أن شاهد الولد وقال:

ـ ليونيد. . . جوليكوف! أي أقدار ألقت بك؟ اذ يقولون أن الالمان قد طردوكم من القرية. وأين تعيش؟ فلنذهب وأوصلني وتكلم لي عن كل شيء في الطريق.

ـ وأنت أين يا فاسيلي جريجور يفتش؟ سأله ليونيد؟.

ـ قال المدرس: أنا مع الفدائيين.

وقدما الى البيوت الرابضة في طرف القرية حيث كان يرابط فريق من الفدائيين، للراحة. قسم ينظف الرشاشات، وآخرون يتناولون الطعام. أما ليونيد فلم يكن يستطيع أن يتصور سعادته في هذه اللحظة، وكم كان يحلم بمقابلة مع الفدائيين وها هو. كان يحدّق بفضول حوله. آه لو بقي هنا! ومن الواضح أنهم ناس أبطال، أو باختصار: فدائيون.

وسألوا فاسيلي جريجور يفتش عند وصوله: ـ هل جندت فدائياً جديداً؟ وقد تلقى ليونيد في البداية هذه الكلمات باستهزاء، ثم سأل معلمه:

ـ فاسيلي! هل من الممكن أن أبقى مع الفدائيين؟.

فقال المدرس متعجباً: ـ أنت؟ انني لا أعرف. فكم عمرك؟.

وكذب ليونيد واحمر وجهه خجلاً: ـ خمسة عشر.

ونصح الفدائي ذو الشارب، فاسيلي قائلاً: خذه لنفسك يا فاسيلي في الاستطلاع، فالولد يبدو حركاً. . .

ـ أجاب فاسيلي: حقاً. انه من الممكن أخذه. فقد كان قائداً في المدرسة.

ومنذ ذلك اليوم أصبح الرائد «ليونيد جوليكوف» مسجلاً في فرقة الفدائيين.

وبعد أسبوع ابتعدت الفرقة من مكانها وتوغلت في الغابة لكي تنفذ عبر خط الجبهة الى المؤخرة للألمان. وقد ساروا بضعة ليال عبر مستنقعات وغابات وعرة، وقد تحمل ليونيد بصلابة مشقات الفدائيين من برد قارس وليالي الأرق والمسيرات الطويلة.

وسرعان ما ظهر في فريق الفدائيين ولد آخر يدعى «ميتيايكا». وصادق ليونيد بسرعة رفيقه الرائد الصغير، وقد كانا ينامان حتى على أرضية خشب واحدة معدّة للنوم. وذات مرة دخل أحد الفدائيين الى المخبأ وقال للولدين: ـ ها يا نسران ان القائد يستدعيكما وعنده مهمة لكما.

ومنذ ذلك اليوم كان يذهب ليونيد وميتيايكا للإستكشاف، وكانا يستطلعان موقع حاميات الأعداء ونقاط نيرانهم وأين توجد المخابىء. وقد أصبح عند ليونيد الآن رشاش حقيقي. تحتّم عليه غير مرة مشاهدة الأعداء عن قرب جداً، لكنه مع ذلك لم يجبن ولم يخف.

هذا ولقد ابتدع الولدان وسيلة للإستطلاع. فقد كانا يرتديان ثياباً رثّة ويأخذان شنطة ويجوبان القرى في مظهر الشحاذين يطلبان معونة. أما هما فقد كانا يتطلعان بأعينهم ويلاحظان كل شيء: كم عدد الجنود هناك؟ وأي سلاح هو سلاحهم؟ كم عدد الرشاشات والمدافع؟.. الخ..

انها مهمة صعبة بالفعل لكنها ليست مستحيلة.

وذات مرة تمكن ليونيد ورفيقه ميتيايكا من النفاذ الى مطعم للضباط الالمان. وبعد أن تناولا الغداء كتب ليونيد مذكّرة وتركها على المائدة قال فيها: «الموت للمحتلين الالمان! لقد كان يتناول الغداء هنا الفدائي جوليكوف. فاهلعوا يا أوباش!».

وحينما اكتشف الهتلريون المذكرة كان الفدائيان الصغيران قد ابتعدا. وكان أحياناً ما يترك ليونيد مع الفدائيين الآخرين الفرقة لبضعة أيام، كانوا يستطلعون المسالك للطرق الحديدية وكانوا يصاحبون زارعي الألغام ويفجرون السدود بأنفسهم.

وصادف أثناء احدى عمليات الاستطلاع، أن جرح رفيق ليونيد، ويدعى «ستيبان». ولم يرض ليونيد أن يترك رفيقه ينزف بعيداً عن مقر الفدائيين، وإنما عمل على حمله مسافة طويلة نال على أثرها تهنئة قيادته. وفي الصباح قدم قائد الفريق الشكر لليونيد أمام الطابور وقال أن الفدائي الاستكشافي ليونيد جوليكوف سوف يقدم لمكافأة حكومية مقابل انقاذه لرفيقه.

وقد حدثت أحداث هامة بعد بضعة أيام: فقد قبل ليونيد في اتحاد الشبيبة اللينيني وتسلم مكافأته الأولى وهي ميدالية «لمآثره الحربية».

ولكن في يوم ١٣ آب/أغسطس من سنة ١٩٤٤ حدث شيء عجيب.

ذهب الفدائيون في ذلك اليوم للإستطلاع في الطريق الممهد. وبعد أن أنجزوا المهمة قرر القائد العودة الى الكتيبة وأعطى إشارة لذلك. وقد نهض

ليونيد أيضاً، ولكنه شاهد في تلك اللحظة من على بعد عربة ركاب المانيـة. فرقد ليونيد وراء كومة حطب وأعدّ قنبلة وأخذ ينتظر. اقتـربت العربـةوفلرملت عنـد السد، فـألقى ليونيـد بالقنبلة على العـربـة التي أصـابت مخفّفهـا ودوى انفجـار كبيـر دفـع العـربـة واهتـزت وجـرت عشـرة أمتـار أخـرى بسبب قـوة الاستمـرار. وشاهـد ليونيـد كيف خرج من العـربـة المـاني بلبـاس عسكـري وأمسك بمسدس أوتوماتيكي وحقيبة حمراء، واندفع جـانباً عن الـطريق. وقد لاحظ الضـابط الهتلري أن أحداً مـا قد خـرج جاريـاً من وراء كومـة الحـطب ووقـع بجانب العـربة بعـد قفزتين. ثم شـاهد الالمـاني أن ولداً مـا يتبعـه من خلفه. حينئذ أعطى بضع عيارات فرقـد ليونيـد واستمر في الـرمي راقداً. أمـا الهتلري فقد جرى من جديد فازدادت المسافة بينهما.

طارد ليونيـد كيلو متراً كـاملاً العـدو الراكض، فـألقى الالماني سترتـه البيضاء وبقي في القميص الغامق، ولذلك أصبـح التسديـد إليه أصعب. ولم يبق في حوزة ليونيد إلا رصاصـة واحدة في رشـاشه. وجـرى الضابط الهتلري مستمراً في إطلاق النار. فسدّد ليونيد جيداً وأطلق رصاصته الأخيرة، وسرعان ما خطا عدوه عدة خطوات مترنحاً ثم سقط على الأرض.

أسرع ليونيد الى القتيل وأخذ الحقيبة والرشاش وذهب الى الخلف وهو يتنفس بصعوبة. وقد التقط في الطريق السـترة البيضاء وشـاهد عليهـا كتافتين مبرومتين لجنرال فقال بصوت مسموع: ـ يا له من غنيمة جيدة!.

ظهر ليونيد في معسكر الفـدائيين في بدلـة رسمية بيضـاء لجنرال ومعـه حقيبـة حمـراء تحت إبـطه... كـان مـظهـره مضحكـاً لـدرجـة أنـه دوى في المعسكر ضحك مرتفع. أما ليونيد فقد أخذ يقدم تقريره بعـد أن اتخذ وجهـاً حاداً:

ـ لقد وصل الاستطلاعي الفدائي ليونيد جوليكوف من المهمة.

أوصل فاسيلي جريجور يفتش الى أركان الفرقـة حقيبة وثـائق الجنرال. وارتفعت ضوضاء في الأركان واستدعوا بسرعة عامل اللاسلكي.

وقال فاسيلي جريجور يفتش حين عاد من الأركان: ها يا ليونيد انك لماهر. ان وثائق مثل هذه يستطيع الحصول عليها حتى المستكشف المحنّك مرة في كل مائة سنة. وسيخبرون موسكو الآن عنها. فأي وثائق عظيمة وثائقك؟.

وسرعان ما وصلت من موسكو برقية لاسلكية: فقد اقترحوا على المشتركين في عملية الاستيلاء على الوثائق الالمانية الهامة مكافأة عليا، ولم يكونوا يعرفون في موسكو بعد أن كل الوثائق قد استولى عليها فدائي واحد وعمره ١٤ عاماً فقط.

وهكذا أصبح الرائد الفتى ليونيد جوليكوف بطلاً للإتحاد السوفياتي. ولكن ليونيد لم يقدر أن يعرف عن مكافأته لأنه استشهد في قتال غير متكافىء في ضواحي قرية «أوستريا لوكا» يوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩٤٤.

لم تعرف والدة ليونيد «يكاترينا اليكسيفنا» لمدة طويلة عن مصير ابنها. ولكن، وصل ذات يوم الى قرية لوكينو ساع في بزّة عسكرية وقد وجد «يكاترينا اليكسيفنا» وسلّم اليها ربطة كبيرة ذات أختام مشمّعة. وكان في هذه الربطة وثيقة الجزاء في تغليفة جلدية بلون التوت، مكتوباً فيها:

«الى بطل الاتحاد السوفياتي ليونيد ألكسندروفيتش جوليكوف.

مقابل مأثرتك البطولية في الكفاح ضد المحتلين الفاشيين الالمان في مؤخرة العدو، ومقابل خدماتك الخاصة في تنظيم الحركة الفدائية في منطقة لينينغراد قررت هيئة رئاسة المجلس الأعلى لإتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بتاريخ ٢ ابريل ١٩٤٤ منحك لقب بطل الاتحاد السوفياتي.

الامضاء: رئيس هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية «كالينين».

سكرتير هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية

السوفياتية «جوركين».

وقد حمل الساعي علاوة على ذلك خطاباً الى والدة ليونيد من «ميخائيل كالينين» جاء فيه:

«الى المحترمة يكاترينا اليكسيفنا. طبقاً لخبر القيادة استشهد ابنك ليونيد الكسندورفيتش جوليكوف من أجل الوطن استشهاد الأبطال.

وقد منحته هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بتاريخ ٢ ابريل ١٩٤٤ أعلى درجة للجدارة وهي لقب بطل الاتحاد السوفياتي مقابل المأثرة البطولية التي قام بها ابنك في النضال ضد المحتلين الالمان في مؤخرة العدو.

وإنني أرسل اليك شهادة هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية عن منح ابنك لقب بطل الاتحاد السوفياتي من أجل حفظها كذكرى لابنك البطل الذي لن ينسى شعبنا أبداً مأثرته.

كالينين»

دفن ليونيد جوليكوف في قرية «أوستريا لوكا» حيث استشهد.

أما في قرية بولا حيث تقع مدرسة جديدة ذات طابقين، يوجد فريق للرواد باسم «ليونيد جوليكوف». ويتذكر الأولاد في الاجتماعات بطلهم الفتى، ويسمعون الحكايات عن بطولاته الحربية، وتنتاب كلاً منهم الرغبة في أن يكون شجاعاً ومقداماً كما كان الرائد الصغير الفدائي «ليونيد جوليكوف».

وكثيرون جداً في الوطن العربي، وفي لبنان على وجه الخصوص، أولئك الذين هم من طراز ليونيد جوليكوف. وكثيرون أيضاً في المقابل أولئك الذين هم برتبة الجنرال الالماني الذي صرعه ليونيد، يتعاونون مع أعداء الشعب والوطن، ومع أعداء الانسانية جمعاء.

المرجع

ـ انظر كتاب «نافخ البوق الخالد». ترجمة مكارم الغمري. دار التقدم. موسكو ١٩٧٤. ص ١٠٣ ـ ١١٤.

عبقرية الفتاة السوفياتية
بين الواجب والبطولة

عندما كان لابد من طائر يحلّق، كان لابد له من جناحين. وليس بجناح واحد فقط يستطاع التحليق. وهكذا هو الحال بالنسبة للمجتمع البشري، الذي يصعب عليه التقدم والتطور والسير في معارج الحضارة والرقي، بمعزل عن جناحيه ونصفيه، المتمثلين: بالرجل والمرأة.

إنها سنّة الحياة؛ ولا حياة لمجتمع الانسان، إلا بهذين الجناحين. فالعصر عصر الفضاء واكتشاف الكواكب؛ وعصر الجاهلية ولّى الى غير رجعة، كما ولّت معه جريمة «وأد البنات» التي تعتبر من أكبر الجرائم التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

واذا كان للرجل تاريخ حافل بالمنجزات والاختراعات، فإن ذلك لم يكن مطلقاً بمعزل عن مشاركة المرأة ووجودها الملازم الدائم.

وكثيرات منهن صنعن المعجزات، ولعبن دوراً خارقاً في ميدان العمل والانتاج، كما في الميدان الأمني والسياسي، وحتى العسكري، خلال المعارك والحروب. وكانت الحرب العالمية الثانية المسرح الأكبر الذي برزت فوقه عبقرية النساء وبطولتهن، وخصوصاً على الصعيد السوفياتي؛ حيث اكتسبت إحداهن من المجد والشهرة ما يفوق الوصف والخيال، وهي الآنسة «أوجيني رودنيفا» التي أصبحت كبيرة ملّاحات اللواء الجوي السوفياتي في الحرب العالمية الثانية.

فمن هي «أوجيني رودنيفا»؟ وكيف حصلت على وسام «النجمة الذهبية ذات الشريط الأحمر»؟.

كان قد مضى، في الواقع، على اكتساح روسيا من قبل هتلر أربعة أشهر فقط عندما أصبحت جيوشه على مقربة من موسكو تهدّدها بالاحتلال بين عشية وضحاها. و«سمولنسك» قد سقطت بأيدي الالمان. ومع تساقط الثلوج في أول الشتاء كان القتال يحتدم ويشتد باتجاه لينينغراد وموسكو.

ولقد جاء الشتاء مبكراً في شهر تشرين الأول/اكتوبر عام ١٩٤١. وفي العاصمة الروسية كانت أخبار تقدم الالمان تبعث الفزع في النفوس؛ ولهذا فقد قوبل سقوط الثلج بالإرتياح العظيم على أنه تعزيز لدفاع الروس وتأخير لتقدم الالمان السريع. أما الرياح الشرقية القاسية فلم تبعث الخوف في قلوب الروس هذه السنة، بل فرحوا بها لأنها ستحدّ من اندفاع الالمان باتجاه الشرق، وتعطي للروس الفرصة للمقاومة المجدية في أرض يعرفونها، وطقس اعتادوا عليه.

وكانت الآنسة «أوجيني رودنيفا» تغادر غرفة الدرس في جامعة موسكو لآخر مرة في حياتها. ففصل الشتاء الجديد قد خطّ لها حياة جديدة، وساعدتها الظروف لتلعب دوراً كبيراً في تحطيم قوات العدو الزاحفة.

كان عمرها عشرين عاماً. متوسطة القامة، وفي زرقة عينيها وميض يدل على الحزن الذي سبّبته الغارات النازية على بلدها، والتي نتج عنها مقتل الكثيرين من أهلها ورفاقها.

ولقد علمت مؤخراً بأن وزارة الحربية قد قررت تشكيل فيلق جوي من النساء، وأسندت قيادته الى أشهر سيدة طيارة في العالم وتدعى الرائد «مارينا يسكوفا». ولقد تقرر اشتراك هذا الفيلق بالعمليات فور انهائه مدة تدريبه، واشترط أن يكون أعضاؤه من طالبات الجامعات في موسكو، أو من أعضاء نوادي الطيران، والسيدات طياري شركة الخطوط الجوية السوفياتية «ايروفلوت Aeroflot». ولم تتأخر «أوجيني» لحظة، فكانت أولى المتطوعات.

ولقد تمكن سلاح الطيران الالماني في الأسابيع الأولى من العمليات، من القضاء على سلاح الطيران السوفياتي في منطقة الجبهة. وبذلك أصبحت

القوات الأرضية عرضة للتدمير. فكان لابد من متطوعين لسلاح الطيران؛ ولضمانة العدد المطلوب كان لابد من تطويع النساء.

ووجدت «أوجيني رودنيفا» نفسها في فيلق جوي للقاذفات وفي مدرسة خاصة على شاطىء نهر «الفولكا». واضطرت الى جمع شعرها الذهبي الجميل في لباس الرأس الخاص بالطيارين؛ ثم بدأت تتدرب على قيادة الطائرات.

ولم يكن يصدق بأن تنقلب هذه الفتاة الى مّلاح جوي خلال تسعين يوماً فقط. ولضيق الوقت لم يعط المدرّسون الفرصة لأحد. ومن لا يتمكن من السير بسرعة في التدريب يوقف عن الطيران، ويحول الى وظائف أرضية بحتة.

وخلال شتاء (١٩٤١ ـ ١٩٤٢) القاسي، بذلت «أوجيني» مجهوداً جباراً في دراستها، ولوحظ عليها ولع شديد بمادة الملاحة الجوية، فأصبحت اختصاصية فيها. وبانتهاء الدورة، حصلت «أوجيني» على جناح الملاحين وهو عبارة عن جناحين يحملان قنبلة بينهما.

وصادف أثناء انتهاء الدورة ورود أخبار حسنة من الجبهة الوسطى. فقد تمكن السوفيات من وقف زحف الالمان قرب موسكو. وفي الجنوب تمكنوا من إعادتهم الى الخلف قليلاً نحو شبه جزيرة القرم، ولكن الجيوش الالمانية ما زالت لديها القوة اللازمة للزحف.

وفي شهر مايو عام ١٩٤٢ عيّنت «أوجيني» في اللواء الليلي القاذف الذي كان تحت قيادة الطيارة النقيب «أودوسي بيرشنسكايا». وكانت طائرات هذا اللواء من طراز «بوليكاروف P. o. 2»، وهي طائرات قديمة اخترعت عام ١٩٢٧ ذات مقعدين مكشوفين ليضعا الطيار، والملّاح تحت رحمة الطقس السيء. وكانت سرعة هذه الطائرات القصوى لا تزيد عن (١٢٥ كلم/ساعة)، لكن سرعة انهيارها القليلة كانت تسمح باستخدامها من المزارع والطرق في حالات الضرورة. كما كانت مدهونة باللون الكاكي، ولا يوجد

فيها أي سلاح دفاعي.

وقد تعيّنت الآنسة «نيناراسبوبوفا» طياراً أول للملاّحة «أوجيني» وكانت مهمتهما قذف مراكز العدو ليلاً.

وأخذت الفتاتان تطيران ليلة بعد ليلة فوق خطوط العدو قرب جزيرة القرم. وكانت المهمات متواصلة ولا تتوقف مهما كانت الظروف سيئة، في البدر المنير والليالي الظلماء، وحتى لو كانت الغيوم الدكناء تغطي الأهداف التي يجب ضربها.

كانت «أوجيني» تصل الى هذه الأهداف بدّقة متناهية، ثم تأمر زميلتها (نينا) بإفلات القنابل؛ وكانت نتيجة الغارة تصل الى اللواء في اليوم التالي عن طريق رجال المقاومة الشعبية المعروفين «بالأنصار» (Partizan) الموجودين خلف خطوط العدو، فينهال عليها الثناء والتقدير من جميع رفيقاتها في اللواء.

ولم يكد ينتهي صيف ١٩٤٢ حتى صدر أمر تعيينها كبيرة ملاّحات اللواء وذلك بسبب الخبرة العظيمة التي اكتسبتها خلال مهماتها. ولم تكن «أوجيني» تعتمد فقط على النواحي العملية في مهماتها، بل كان للمعلومات النظرية أهمية كبرى في نجاح هذه المهمات أيضاً، حتى أنها لقبت فيما بعد بصاحبة النظريات.

وخلال الليالي الطويلة لشتاء عام ١٩٤٢ - ١٩٤٣، كانت الطائرات السوفياتية من طراز «بوليكاروف P. o. 2» تقوم بأكبر عدد من الغارات على الخطوط الالمانية؛ وكانت الطائرة الواحدة تنفّذ ما لا يقل عن خمس طلعات كل ليلة ابتداء من غروب الشمس وحتى شروقها. ويلغ مجموع غارات اللواء خلال تلك الليالي (١٩٤) غارة، قذف فيها ما لا يقل عن (٥٥) ألف قنبلة.

ولقد تمكنت أوجيني خلال احدى غاراتها ليلاً من اصابة مركز قيادة الفيلد مارشال «بارون فون كليست» في منطقة «موزدوك»، ووصلت أخبار هذه الغارة الناجحة الى مسامع الفريق «بتروف» قائد جبهة القوقاز الشمالية، وذلك قبل أن تقوم «أوجيني» بكتابة تقريرها عن ذلك.

ولقد كان الالمان يسخرون كثيراً من هذه الطائرات، ولكنهم كانوا دوماً يحترمون ملّاحيها ويلقبونهم بملائكة جهنّم.

وحتى صيف عام ١٩٤٣، تابع اللواء غاراته دون أن يكون هناك حوادث مؤسفة. ولكن في أول آب/أغسطس عام ١٩٤٣، كانت «أوجيني» تطير مع «كلوديا سيريبير باكوفا» في مهمة قذف الخطوط العدوة قرب مدينة «كيفسكايا». وللأسف الشديد دخلت طائرة القائدة «كرواتوفا» ـ أحسن طيارة في اللواء ـ ضمن منطقة محمية بالمدفعية المضادة للطائرات، وحوصرت الطائرات بأنوار الكشافات، فأصيبت طائرة القائدة وهوت نحو الأرض، وانفجرت بقنابلها فوق مواقع العدو، وتبعتها ثلاث طائرات أخرى لنفس السبب، وخسر اللواء ثماني فتيات في لحظة واحدة.

ولقد أثّرت هذه الخسارة الفادحة تأثيراً كبيراً في نفس «أوجيني». فبالرغم من خبرتها العظيمة في العمليات الحربية، فإنها ما زالت صغيرة السن لا تتجاوز (٢٢) عاماً، ولا ترغب بالموت، لكنها كانت تخاف الحريق، وتفزع من الوقوع أسيرة بأيدي الالمان. ولهذه الأسباب فقط أخذت فكرة الانتحار تجد طريقها الى هذه الفتاة، وأخذت تتحدث كثيراً عن النقيب «كاستللو» الذي انتحر بطائرته الملتهبة حيث قادها باتجاه رتل من الدبابات وعربات الوقود الالمانية حتى اصطدمت به وانفجرت. وكانت تقول لرفيقاتها: «اذا صدف واشتعلت النار بطائرتي، فلسوف أوجهها نحو الخطوط العدوة منتقية هدفاً جيداً لأدمّره. وعندئذ لا يمكن للألمان أن يحرقوني».

ومنحت الحكومة السوفياتية الملاحة «أوجيني رودنيفا» لقب بطلة الاتحاد السوفياتي تقديراً لبطولتها والمهمات الناجحة التي نفذتها. وبذلك كانت «أوجيني» أول امرأة في القوات المسلحة تحصل على النجمة الذهبية ذات الشريط الأحمر.

وخلال شهر فبراير سنة ١٩٤٤، سافرت «أوجيني» الى موسكو بإجازة لمدة أسبوعين، ثم عادت وعيناها تبرقان بوميض الفرح والسرور، وهرعت نحو

غرفة قائد اللواء «أوجيني راتشكتفيتش» والتي كانت برتبة رائد. وبعد أن أدت لها التحية النظامية قالت: «لقد خالفت ملّاحتك الأوامر فأحبّت، انني مخطوبة».

- ومن هو خطيبك؟ قالت قائد اللواء.

- يدعى سلافيك. انه ضابط في سلاح المدرعات، وهو أحسن رجل في العالم.

- في منتصف ليلة التاسع من شهر ابريل عام ١٩٤٤، صعدت «أوجيني» الى طائرتها لتقوم بتنفيذ غارتها الـ(٦٤٦) في ضرب المطارات الالمانية قرب «بولكاناك» وهي تقول لقائدة الطائرة «بروكوفيفا» بأن الحرب ستنتهي حتماً عندما يصبح مجموع ما نفذته من غارات (٧٠٠) غارة.

دارت الطائرات فوق الهدف فلمحت قائدة الطائرة انفجارات قذائف مدافع «الأورليكون» المضادة للطائرات، وشاهدت الأنوار الكاشفة تفتش عن طائرتها؛ ولكن صوت الملّاحة جاء واضحاً موجهاً إياها نحو مركز هذه الانفجارات. ولسوء الحظ فإن قذائف أحد المدافع الالمانية أصابت الطائرة اصابة حسّاسة فاشتعلت النيران.

وصاحت الملّاحة «أوجيني»: انقضاض باتجاه المراكز الالمانية.

وكان ذلك آخر جملة سمعتها فتيات اللواء اللواتي كنّ فوق نفس المكان. وانقضت الطائرة «بوليكاروف P. o. 2» فوق الطائرات الالمانية الجاثمة على أرض المطار. وأثناء الانقضاض كانت «أوجيني» تودّع رفيقاتها برمي رشاشات قصيرة من مدافع الطائرة؛ ثم انفجرت الطائرة لدى اصطدامها بمجموعة الطائرات العدوّة، وظهر في مكان الانفجار لهب أحمر اندفع عالياً نحو السماء يعلوه الدخان الأسود.

وبعد بضعة أيام استطاع الجيش السوفياتي احتلال مدينة «بولكاناك» والمطار المجاور لها. وأجريت التفتيشات اللازمة عن جثّتي الفقيدتين بين

حطام الطائرة؛ وللأسف لم يعثر على شيء منها.

لقد دخلت «أوجيني رودنيفا» التاريخ السوفياتي من بابه الواسع، ضد النازية والفاشية، تماماً كما يدخل التاريخ اللبناني والعربي اليوم فتيات جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد النازية الجديدة المتمثلة بالصهيونية والعنصرية على أرض جنوب لبنان العربي، بدءاً من المناضلة البطلة «يسار مروّه» مروراً بـ «سناء محيدلي» و«ابتسام حرب» ولن تكون آخرهن «لولا عبود» و«وفاء نور الدين».

فالعنصرية والفاشية واحدة في كل زمان ومكان. والحرية واحدة أيضاً. ولذلك يصحّ القول مع المتنبي في رثائه لوالدة سيف الدولة:

فلو كان النساءُ كمن فقدنا لفضّلت النساءُ على الرجالِ
فلا التأنيثُ باسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

المرجع

١ ـ «المجلة العسكرية» (قومية ثقافية تصدر شهرياً عن قيادة الجيش الأول في القطر العربي السوري). ترجمة الرائد الطيار ماجد حموي. العدد السابع. السنة الحادية عشرة. فبراير ١٩٦١. ص ٧٩ ـ ٨٢.



الفهرس


المركز الثقافي اللبناني